سعـــــداللـــــه ونـــوس

مسرحيـــة أحـــلام شقيـــة



سعد الله ونّوس

مسرحية أحلام شقية

من الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

الطبعة الأولي

١٩٩٦

الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - دمشق

أحلام شقيّة



المكان: بيت عربي صغير يتألف من غرفتين متقابلتين تقريباً، بينهما فسحة سماوية ضيقة تتوسطها فسقية صغيرة جافة. وفي زاوية من الفسحة أقيم مطبخ طولاني ضيق، وإلى جواره حمّام ومرحاض. وهناك درج يفضي إلى غرفة علوية، أمامها سطح صغير على شكل شرفة.

طبعاً يمكن الاستعاضة عن كلّ ذلك بمستويات، أو بأيّة صيغة مكانية يتخيلها المخرج ومصمم الديكور. ولكن مهما كان الحل الذي يلجأ إليه العرض، فإنّ من المهم الحفاظ على انطباعين يوحي بهما البيت، وهما: الانغلاق والضيق.

من المفترض أنّ أحداث هذه المسرحية تدور في خريف عام ١٩٦٣. وهذا التحديد لايخلو من قيمة أو مغزى.

المشهد الأول

(غرفة ماري صاحبة البيت، وزوجها فارس. وهي أعلى من أرض الدار بثلاث درجات. الغرفة واسعة، ومزدحمة بالأثاث والأشياء. في صدر الغرفة سريرٌ له قوائم نحاسيّة عالية يلتفّ عليها داير من قماش أبيض، ويُزاح الطرفان في المقدّمة للوصول إلى السّرير. في الغرفة ديوانة تستخدم هي الأخرى كسرير. وهناك خزانة وصندوق قديم وأمتعة كثيرة على ظهر الخزانة وفوق الصندوق. وفي الوسط ماكينة خياطة حولها أقمشة وقصاصات قماش.

ماري نائمة في السّرير، ولا نراها. وعلى الديوانة ينام فارس متقوقعاً على نفسه.

ليلة خريفية باردة. والنّوّاسة الصُّفراء تلقي في الغرفة ضوءاً واهناً وبارداً).

فارس : ماري.. ماري.. إنّي بردان. **(يرفع رأسه المغطّى بقبعة صوفيّة، ويلتفت نحو السّرير)** ماري. ردّي عليّ. لن تخدعيني. أعرف أنّك لم تنامي بعد.. بكّر البرد هذا العام. إنّي أرتعش. لا أستطيع النوم إذا لم تدفأ عظامي. هذه الليلة باردة جداً. **(يزيح الغطاء، وينهض من الفراش. يصكّ أسنانه بعضها ببعض)** هل تسمعين.. سينكسر فكي. ماري.. لماذا لاتردّين؟ لعلّي مريض. هذه رعدة مرض. **(يقترب من سريرها).**

ماري : عد إلى فراشك.

فارس : سأفطس من البرد. انظري.. إنّي أرتعش.

ماري : عد إلى فراشك.

فارس : لا أريد شيئاً.. سأتدفأ قليلاً ثمّ أعود إلى فراشي.

ماري : أف.. إنّك تمنعني من النّوم.. أنزل بطانيّة أخرى عن ظهر الخزانة.

فارس : البرد في عظامي يا ماري. والأغطية تثقل عليّ دون فائدة.

ماري : لن تدخل سريري. عد إلى فراشك، ودعني أنم.

فارس : ماما الحلوة.. أنا بلدان.. حطّيني بحضنك.. ماما لدّي عليّ **(يقلّد صوت طفل يبكي)** أنا بلدان.. أنا بلدان.

ماري : عد إلى فراشك.

فارس : **(مواصلاً لعبته)** ماما زلعانة منّي! ليش زعّانة.. ماما أنا خايف.. فيه عفريت. ماما خبّيني بحضنك.

ماري : يا الله ما أثقل دمك! عد إلى فراشك.

فارس : هل صار دمي ثقيلاً؟ كنت تضحكين حين ألاعبك، وأقلّد لك الأطفال الصّغار.

ماري : **(بعنف)** كنت أضحك من القهر، ومن الشّفقة أيضاً.

فارس : ما الذي يضايقك!. إنّك تزدادين قسوة يا ماري. ونحن واحدنا للآخر. ليس لي أحد سواك، وليس لك أحد سواي.

ماري : **(تنهض من فراشها منتفضة)** ومن قال.. ليس لي أحد سواك!

فارس : **(يحاول أن يجلس على طرف السّرير)** ماري.. وسّعي لي قليلاً.

ماري : **(صائحة)** انهض.. كم مرّة قلت لك. لا أريد أن تلمس فراشي.

فارس : **(ينهض خائفاً)** لايحقّ لك أن تعامليني بهذه القسوة. من لك سواي؟

ماري : ألا تعلم من لي سواك؟ لي ابن.

فارس : أتجعلينني أجنّ.. من أين تخترعين لنا أبناء؟

ماري : هس.. إنّه في الغرفة العلويّة. ألا تسمع وقع خطواته؟. عد إلى فراشك، وإلاَّ ناديته وقلت له.. إنَّه يعذِّب أمّك يا بشير.

فارس : لاشكّ أنَّ هذا الداهية خطف عقلك. أعرف.. منذ سكن هذا الغريب الذي لانعرف من أين أتى، ولا ماذا يعمل، تغيّرت أحوالك، وقويت عينك عليّ.. ومن هو حتّى تعامليه معاملة الابن؟

ماري : إنّه ابني الذي عاد إلى أمّه بعد سنين طويلة من الغياب.

فارس : أهذا كلام! أتصدِّقين نفسك حقّاً؟ هذا وهم يتلاعب بك.

ماري : إياك أن تسمّي ابني وهماً. أعرف لماذا تتحامل عليه.. ألم يكشف فساد روحك؟ ألم يقل لك.. لاتعذِّب أمّي؟

فارس : ماري.. هذا جنون. نحن في عمر نحتاج فيه إلى التعاطف.

ماري : (مهتاجة) وهل تعرف التعاطف أنت؟ متى كنت متعاطفاً؟ كان عمره ستّة أشهر حين ولدته.. وماذا فعلت آنذاك؟ أتذكُر؟ جمعت لعابك النّتن في فمك، ثمّ بصقت على الأرض وكأنّك تهيل عليه التّراب. لم تنظر إليه، ولم تبالِ بالأمر. كأنّك رأيت جيفة في الطريق، وكأنّه لم ينزل من صلبك الهالك.

فارس : لايحقّ لك أن تفتحي هذه السيرة الآن.

ماري : نعم.. ينبغي أن نفتح هذه السيرة. دائماً تريد أن تطوي كلّ شيء، لكي لاتكدر عيشك. ثلاثون سنة من النسيان. أنت تطوي وتلهو، وأنا أتقرمد في الشّقاء، وفي ترتيب الحياة حولك كي تلهو بلا منغّصات.

فارس : هذه قسوة فظيعة. كيف يخطر لك أن تفتحي دفاتر العمر في هذه الليلة الباردة؟ ما الّذي غيّرك يا ماري؟ كنت دائماً

وديعة كاليمامة راضية كالمغموسة بالنعمة. لم تكوني تتذمّرين، أو تناكدين. لا أعرف ماذا فعل بك هذا الدّاهية! منذ استأجر هذه الغرفة، وأنت تتحوّلين.

ماري : طبعاً لا يعجبك أن يظهر ابني بعد هذا الغياب الطويل. وأن يقف إلى جانبي في الشّقاء الذي سببته لأمّه. في البداية.. حين لم تكن تعرف إلى جانب مَن سيقف، كنت تحبّه، وكنت لا تمل من التغني بمزاياه. في البداية.. حين كان يزوّدك كلّ صباح ببعض السجائر، ويلاعبك بالزّهر مسايراً قلّة همّتك وكسلك. ألم تكن تحبّه؟ قل.. ألم تكن تمدحه على الطالعة والنازلة؟

فارس : (مرتبكاً) أعترف أنّني أحببته في البداية.

ماري : وما الذي بدّل المحبّة نفوراً؟!

فارس : انظري.. لقد قلب حياتنا. ألم يقلب حياتنا يا ماري؟ إنّه يخيّم علينا، ويبذر النكد بيننا. لم أعد أشعر بالارتياح في هذا البيت، ولا حتّى في القهوة. أحسّه كالظلّ ورائي كيفما تحرّكت. وهو لايتعب من لومي. دائماً يلومني. وفي النهاية.. من هو.. إنّه غريب يستأجر لدينا غرفة.

ماري : لا تقل إنّه غريب. ولو كان غريباً، لما باليت إن لامك. طبعاً.. أنت تكرهه، وتخاف منه، لأنّه جاء كي يرتّب ما تبقّى من حياة أمّه، ويخفّف قليلاً من الشّقاء الذي قاست منه. الشّقاء الذي تجرّعته ثلاثين سنة وهي صامتة وراضية. أتعرف ماذا قال لي اليوم؟ قال لي.. حين تصعدين إلى السّماء يا أمّي، ستجدين الملائكة حائرة، تتساءل كيف نعوّض هذه المرأة عن الشّقاء الذي تكبّدته. وأيّ فرح يمكن أن يغسل روحها من العذابات التي تحمّلتها؟ آه يا أمي..

سترفّ الملائكة حولك كطيور من نور ولطف، وستغني بأعذب الأصوات كي تواسيك، وتملأ قلبك بالفرح. وأنا الآن.. أعيش في كنف ابني الذي عاد، منتظرة تلك الرّحلة المهفهفة بالطّهارة. كلّ ليلة أتطهّر، وأطهّر فراشي، وأنتظر. وماذا تعرف أنت عن الفرح الذي أنتظره؟! ستكون شهقة لطيفة، ثمّ أسمع رنين أجراس فضيّة يموج حولي كالأنسام النّديّة، ثمّ أرحل عنك وعن هذه الدنيا المتعفّنة.

فارس : لن تفعلي.. لايمكن أن ترحلي، وتتركيني وحيداً. أنا بردان، وليس لي أحد سواك.

ماري : وهل فعلت شيئاً حتّى يكون لك أحد؟ حتّى الولد رفضته، وكفّنته بالبصاق.

فارس : ألا تتعبين من لومي؟! أنا أيضاً كان لي نصيبي من هذا الشّقاء.

ماري : آأنت تتحدّث عن الشقاء! تذكّر كيف مضت حياتنا.

فارس : بحق الله.. دعي الماضي يا ماري. إنّي بردان.. ولعلّي لن أبقى حيّاً حتّى الصّباح.

ماري : أعرف هذه النغمة. كلّما أردت شيئاً، تلوّح لي بالموت الوشيك.

فارس : لا أريد إلاّ أن تدعي الماضي، وتوفّي لي حقّي. لي عليك الطّاعة يا ماري.

ماري : أنفقت حياتي في طاعتك، وماذا جنيت؟! العقم، وتبديد العمر. هل تذكر ماذا أهديتني في عرسي؟ كانت ماري عمياء لا تعرف شيئاً عن الرّجال، وأهداها عريسها في ليلة زفافها داءً لوّث طهرها، وهدم صحتها. هل تذكر دفقات النّار في جوفي.. وكنت تردّ عليّ بمجون ساخر.. إنّ لذّة الرجال موجعة يا ماري. كنت أتعفّن، ولا أفهم لماذا!

وكانت أوجاعي تزداد، ولا أجرؤ على الاستفسار أو الشكوى. كنت دائماً مطيعة، ولم أجنِ من الطّاعة إلاّ العقم والسّقم والبلوى.

فارس : لا يا ماري.. ما حدّثتني مرّة بهذه القسوة. أنا أيضاً كنت جاهلاً، ولم أكن أعرف الكثير عن النّساء.

ماري : تلك الأيام.. كم تباهيت، وعاندت!

فارس : كل الرّجال يحبّون التّباهي قليلاً. كنت مسكيناً ووحيداً مثلك يا ماري. ولم أعاند إلاّ لأخفي هذه الحقيقة. يا الله.. ماذا دهاك؟. مرّت سنوات لم تفتحي فيها هذه السيرة. والليلة فجأة يخطر لك أن تنبشي كلّ آلامنا.. هل حرّضك هذا الغريب عليّ؟ قولي يا ماري.. هل كشفت أسرارنا، وتفاصيلنا أمام هذا الغريب؟

ماري : من حقّ ابني أن يعرف ما قاسته أمّه.

فارس : **(يخفي وجهه بكفّيه، ويتراجع لينهار على الديوانة)** لا.. لا.. يا عيب الشّوم. هذه كبيرة يا ماري. فضحتني أمام غريب. أين أختبئ وجهي؟! **(يبدأ بالانتحاب)** إنك تكرهينني يا ماري. ليتني متّ قبل أن أرى ماري اللطيفة والرّحيمة تتحوّل إلى مخلوق غاضب وأناني. يا ربّ.. أبتهل إليك أن تخلّص روحي الليلة. أنا مقطوع من شجرة، والمرأة التي هي سندي فضحتني، وتنكّرت لي. إنّي وحيد وبردان. عظامي تتفكك، وأحشائي ترتجف. وأنا وحيد لايحنو عليّ أحد. يا ربّ.. لم أكن أطلب إلاّ سترة الآخرة فأيّ عقاب تنزله بي؟!

ماري : **(خائرة)** بحق الله اسكت.. إنّك تجعلني أبكي. **(تنهض من فراشها، وتقترب من الديوانة، تجبر فارس على التمدّد، وتدثّره بالأغطية)** لا أعرف صدقك من هزلك.. ولكن لا أحتمل أن تبكي.

فارس : نعم.. هذه هي ماري التي أعرفها. هاتي يدك كي أقبّلها. أنا أعلم أنَّ قلبك ناصع كالثّلج، لكن هذا الغريب دخل بيننا كالجنّي..

ماري : اهدأ، ونم. هل تريد أن أضع لك بطانية أخرى؟

فارس : أترين.. ما أصفانا حين نكون وحدنا! ماكان يجوز أن تنشري سرّنا أمام غريب.

ماري : (بعنف) قلت لك هذا الغريب ابني. منذ سنوات طويلة. وأنا أترقّب عودته.

فارس : باسم الصليب.. هل أنت ممسوسة يا ماري؟! لاشكَّ أنّه سَحَرك، أو عمل لك عملاً. لا.. لن أسمح لغريب أن يخرب حياتنا، ويهتك آخرتنا. غداً سأطلب منه أن يحزم حقيبته، ويرحل.

ماري : وبأيّ حقّ تطلب منه أن يرحل؟ هو في بيته.. هو في بيتي.. ألم يكن أبي هو الذي اشترى لي هذا البيت؟! ألم يكن هو الذي اشترى لي ماكينة الخياطة التي تأكل منها؟! ألم أشترِ بتعبي وكدّي كلّ ما لدينا! وأنت! ماذا كنت تفعل؟ كنت تلهو بين البيت والمقهى.

فارس : قولي إنّي رمّة. قولي إنّي علقة.

ماري : لا أريد أن أقول شيئاً. نم، ودعني أسترح.

فارس : ألا تلاحظين.. ماكنت امرأةً تمنّن.. هذا الشاب سمّم روحك يا ماري. لا.. لن أتركه يسمّم روحك النّقيّة. ينبغي أن يرحل. ولا تنسي أنَّ في البيت عائلة أخرى، وهناك أمور تحدث.

ماري : اسكت ولا تزد كلمة.

فارس : أتريدين أن يغدو بيتنا وكراً للمشاكل؟ أتتحمّل في عمرنا هذا سوء السّمعة والفضيحة؟ وليتنا نعلم مَن هو.. افتحي عينيك

جيّداً يا ماري. ماذا نعرف عنه؟. يقول إنّه طالب. هل رأيت طالباً لايغادر غرفته إلاّ في الليل! لماذا لايحمل كتباً، ويذهب إلى الجامعة كالطلاّب الّذين عرفناهم من قبل؟ افرضي أنّه متورّط في السّياسة.

ماري : اسكت.. اسكت.. أمنعك أن تثير الشكوك والأقاويل حول ابني.

فارس : لاتجعليني أجنّ. من أيّ أب أنجبت هذا.. الابن؟

ماري : من أب يعشّش في صلبه المرض، وتأكل الغيرة قلبه. حين وُلد لم تبالِ به، وحين كبر ونضج أصبحت تغار منه، وتخافه.

فارس : استيقظي يا امرأة.. إمّا أن يرحل، وإمّا أن نجنّ جميعاً.

ماري : اسمع يا رجل.. إذا لم تعجبك عودة ابني، فارحل.

فارس : ماري.. أتطلبين منّي الرّحيل.. أتتخلّين عنّي من أجل صعلوك لا نعرف أصله أو فصله.

ماري : ما قلته واضح. ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى. هذا بيتي، وابني عادَ لي، وأنا أريد الآن أن أصفو وأستريح.

فارس : أنت لاتعرفين زوجك إذن. إذا صمّم فارس..

(تطفئ ماري النوّاسة، وتندسّ في فراشها).

فارس : ماذا فعلت؟ إنّي أكره الظّلام. إنّي بردان، وأكره الظّلام. هذه الليلة رهيبة يا ماري. أقسم لك أنّها رهيبة.

ماري : **(بصوت خافت وخاشع)** أبانا الذي في السموات.. ليتقدّس اسمك... ليأتِ ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السّماء، كذلك على الأرض..

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثاني

(غرفة في بيت ماري يسكنها مساعد في الجيش اسمه كاظم وزوجته غادة، وابنهما ذو السنوات الثلاث أو الأربع واسمه ثائر. كاظم يرتدي بيجامته، ويجلس على بساط مفروش على الأرض، وأمامه طبق من القشّ عليه صحون مازة وفروج مشويّ وكأس عرق. غادة تجلس في زاوية وفي حضنها دفتر رسائل تكتب فيه.. الولد نائم.)

كاظم : أين البصل؟ الا يمكن أن تضعي المازة إلاّ ناقصة! يوماً لا أجد الزيتون، ويوماً لا أجد المخلل. إنّك تحضرين مازتي، وكأنّها عقوبة.

غادة : هل نسيت البصل؟

كاظم : إي نعم يا ست.. نسيت البصل.. يا الله.. فزّي، وهاتي بصل.

(تضع غادة الدفتر جانباً، وتنهض بهدوء. تخرج من الغرفة لتأتي بالبصل).

كاظم : **(يرشف من كأسه، ويدندن مع الأغنية)** سائليني يا شآم.. **(ينهض ويتفحص ابنه، فيجده نائماً. يناديه بصوت خافت)** ثائر.. ثائر.. إنّه يحبّ الفرّوج. لو أطعمته قبل أن ينام.. سأخبّئ له الفخذ. إنّه كأبيه يحبّ الأفخاذ. **(تدخل غادة حاملة صحناً فيه شرائح من البصل)** ألم تلاحظي أنّ ثائر

كأبيه، يحبّ الأفخاذ.. اقطعي له فخذاً كي يأكله في الصّباح.

غادة : عندما تنتهي.

كاظم : لا.. اقطعيه الآن.

غادة : طيّب.. طيّب. اتركه في الصحن.

كاظم : حين أطلب شيئاً، نفّذي ولا تعاندي.

(تناول صحناً فارغاً، وتقتطع فخذاً من الفرّوج المكتّف، وتضعه في الصّحن).

كاظم : أنتِ أيضاً يمكنك أن تأكلي قطعة من الفرّوج.

غادة : شكراً.. تعشّيت مع ثائر.

كاظم : اليوم مزاجي رائق يا غادة، ولا أريد أيّ تعكير. **(يمدّ لها الكأس)** خذي رشفة.

غادة : تعرف أنّي لا أحبّ طعمه.

كاظم : خذي رشفة صغيرة.

(تناول الكاس، تضعه على شفتيها، ويبدو النفور على ملامحها).

كاظم : اشربي، ولاتخافي. هذا يقوي الدّم، ويجلو الرّوح. **(تعود إلى ركنها، وتناول الدفتر)** ألم تنتهي من الكتابة لأخيك؟ اكتبي له أنّ صهرك يقرئك السّلام، ويشرب على البعد كاسك. ولاتنسي أن تخبريه أنّ الثّورة تقوّي مركزها بعد أن دحرت الانفصاليين والوحدويين الخونة من جماعة طاووس مصر. إي.. إي.. قولي له هذه المرة لن تنقش مع عبد النّاصر. هو يغنّي أكلك منين يا بطّة، ونحن نجيبه.. «يا كركدن لا تحسبين تاتقبضن.» نعم اكتبي له هذا كلّه على لساني. وقولي له لا نحتاج إلى علم الأجانب. وعليه أن يعود لكي يخدم الثورة. لماذا لاتكتبين؟

غادة : لن أكتب له ذلك.

كاظم : هاتِ الدفتر. سأكتب له بيدي.

غادة : إني أحبّ عبد الناصر.

كاظم : ماذا قلتِ؟ هل جننت؟

غادة : إنّي أحب عبد الناصر.

كاظم : ومتى كان هذا الحبّ المفاجئ! هذه أول مرّة أسمع هذه القصة. أتبحثين عن الشرا. قولي.. أتبحثين عن الشرّ!

غادة : إنّي أحبّ عبد النّاصر.

كاظم : قلت لك الليلة مزاجي رائق، فلماذا تريدين استفزازي؟

غادة : إنّي أحبّ عبد النّاصر.

كاظم : **(وهو يهبّ غاضباً)** إي سألعن أجدادك على أجداد عبد الناصر. سأكسر رأسك، وأعجنك بدمك. **(يمسكها من شعرها)** أتتحدين مبادئي؟! أتريدين خراب بيتي! خذي إذن..

(يشرع في ضربها. تستسلم غادة ولا تحاول المقاومة).

غادة : اضرب..

كاظم : لم يعرف عمّي كيف يربّيك، أمّا أنا فأعرف.

غادة : اضرب..

كاظم : والله سأشفيك من هذا العناد. **(يزداد في الضرب والرّكل)** يا بنت الصّرماية.. علامَ ترفعين أنفك في وجهي.. ألأنّ شهادة الكفاءة تعثّرت بك! أم لأنّ أخاك المحروس ملأ رأسك بالتحلّل والفساد! أنت هنا.. أنت مع كاظم الذي لايحبّ أن يسمع إلاّ كلمة حاضر.

(يستيقظ الولد مفزوعاً، وهو يصرخ باكياً).

ثائر : ماما.. ماما.

كاظم : نم أنت الآن.

ثائر : اترك ماما.. اترك ماما..

كاظم : **(للطفل)** اسكت، ونم. يلعنك، ويلعن أمّك معك. العمى.. ألا تكفي هذه السّنوات لترويضك؟ والله سأدفنك حيّة، إن لم تبدّلي هذه الطّباع اللئيمة. لقد زوّجني عمّي آفة لا امرأة. **(تذهب غادة، وتأخذ الولد من السرير. تضمّه بحنان، وهي تبكي).**

ثائر : وجّعك.. وجّعك ماما..

غادة : لا تخف يا حبيبي.. لاتخف..

كاظم : طار الكأس، وطار الرّواق. العمى.. ما هذه المصيبة؟ **(صارخاً)** هنا أنا الله. في هذا البيت أنا ربّك الذي تعبدين. ليس لكِ كلمة، ليس لك قول. ألم تفهمي بعد؟ ما أريد هو الطّاعة.. **(يصب كأساً ويكرعه دفعة واحدة).**

ثائر : ماما.. خائف.

غادة : لا.. لاتخف يا حبيبي.

ثائر : ماما..دم.. دم.

غادة : **(تمسح فمها، وتلاحظ الدم على كفّها)** لاشيء.. لاشيء. الآن أغسل وجهي، ويروح الدم. نم أنت الآن. **(تضع الطفل في فراشه، تصلح هيئتها قليلاً، وتغسل وجهها).**

كاظم : أينبغي أن تدفعيني دائماً إلى ضربك؟! كنت الليلة رائقاً. كنت أنوي أن تكون سهرتنا لطيفة. ما الذي يركب رأسك فجأة؟

غادة : كان خطأً.

كاظم : أتعترفين أنّك أخطأت..

غادة : كان كلّ شيء خطأً منذ البداية.

كاظم : اسمعي يا بنت الحلال.. أعترف أنّ مزاجي فائر، ولكن قلبي أبيض. أما آن لك أن تتعلّمي كيف تدارينني؟ تأخذين عيوني

إذا عرفتِ كيف تداريننى. وفي النّهاية أنت ابنة عمي. إنّكِ من لحمي ودمي، ويعذّبني ضميري كلّما قسوت عليكِ.

غادة : كان كل شيء خطأً منذ البداية يا ابن عمّي.

كاظم : لا تحملي عليّ. ألا تعرفينني؟ إنّي سريع الغضب، سريع الرّضا ياغادة. ألم تتعمّدي أن تفوّري دمي! مالك وعبد الناصر.. هل صرت تشتغلين بالسياسة؟ تعالي واجلسي قربي.

غادة : سأنهي رسالة أخي.

كاظم : طيب سأدعك حتى تروقي.

(يكرع كاظم كأسه، ويفسخ بيدين نهمتين الفرّوج، ويبدأ بالتهامه فيما تحاول غادة أن تتمّ الرّسالة).

كاظم : **(يحمل قطعة من الدجاج، ويقترب منها)** افتحي فمك.

غادة : لا أريد.

كاظم : افتحي فمك.. هذه لقمة للمصالحة.

غادة : لا أريد.

كاظم : **(بغضب)** لاتكوني سوداء القلب. خذيها من يدي. **(تفتح غادة فمها باستسلام، فيدسّ لها قطعة اللّحم)** ولَو.. اعتبريها ممالحة. صحّة.. هل أعتبر أنّنا تصافينا؟

(تنهض غادة، وتتجّه نحو الباب).

كاظم : إلى أين؟

غادة : **(وفمها محشو بالطعام)** إلى بيت الخلاء.

كاظم : طيّب.. لاتنسي أن تسلّمي على رئيس البرلمان.

(تخرج غادة فيما يقهقه كاظم على طرفه، ويعود إلى التهام طعامه بشراهة).

المذيع : **(مع خلفيّة موسيقيّة ناعمة)** الليل والشّعر. **(يعلو صوت الموسيقى، تستمر لحظات ثمّ تخفت تدريجياً)**

عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر..

(يغير كاظم مؤشر المذياع حتّى يستقرّ على أغنية خفيفة. تعود غادة)

كاظم : بحياة أخيك.. تعالي إلى قربي. أنا مصرٌّ أن تكون هذه الليلة رائقة.

غادة : ماذا تريد؟

كاظم : إنّ اللبيبة بالإشارة تفهم.

غادة : حاضر.

(وتبدأ بخلع ملابسها)

كاظم : **(وهو ينظر إليها بشبق)** أترين.. ما أسهل أن تكون حياتنا كلّها وفاقاً وهناء! يا الله.. سأغسل فمي، وأوافيك **(يخرج من الغرفة)**.

غادة : كان كل شيء خطأ. **(يجفل الولد في نومه، ويشهق، تهرع غادة)** اسم النبي عليك.. حوّطتك بالله.. نم يا حبيبي نم.. نم يا حبيبي.

كاظم : **(وهو يدخل هامساً)** هل استيقظ؟

غادة : لا..

كاظم : **(وهو يفرك يديه)** عظيم.. عظيم.

(يطفئ النور في الغرفة).

المشهد الثالث

(في غرفة ماري. ماري تجلس وراء ماكينة الخياطة وفارس يتربّع على الديوان ويدثّر ساقيه بالأغطية. يتناول من سترته القريبة عقب سيكارة طويلاً. يسوّيه بإصبعه ثمّ يشعله).

فارس : ما القصّة! رأيته اليوم يخرج مبكراً.

ماري : مَن؟

فارس : المستأجر.

(تتوقف ماري عن الخياطة. تلتفت إليه، وترشقه بنظرة مركّزة وقاسية).

فارس : فعلاً.. لم أره مرّة يخرج مبكراً.

ماري : يقبر عظامي.. من أجل راحة أمه، يبدّل عاداته ويبكّر في الخروج.

فارس : ماري طلع النّهار.

ماري : نعم.. طلع النّهار. أنا أكسر ظهري أمام هذه الماكينة، وأنت تقضي اليوم في الجلوس والخمخمة.

فارس : أعني أنَّ النهار يبدّد أوهام الليل وخرافاته.

ماري : (غاضبة) ماذا تقصد بالأوهام والخرافات؟

فارس : أقصد تلك الحكاية التي نغّصت ليلتنا. ماري.. أفيقي.. ليس لنا ولد.

ماري : أتريد أن أخاصمك، وألاّ أبادلك الكلام حتّى الممات؟ إنّه

ابني.. هل تعرف لماذا بكَّر في الخروج؟

فارس : يا دين المسيح.. أخبرني لماذا بكَّر في الخروج؟

ماري : أضاف الله من عمري على عمره.. خرج ابني مبكِّراً كي يرتِّب سفري. بكى حين فاتحته بالأمر، ولكن حين ألححت، وقلت له.. ليس لديَّ من أعتمد عليه، قَبِلَ وهو يشهق بدموعه. سيختار لي تابوتاً زاهياً، وسيوصي الرَّخَّام على رخامة تغطِّي بجمالها شقاء هذه الدنيا.

فارس : (يقفز كالملدوغ) ماذا تقولين؟ فضَّلت أن تكلِّفي هذا الغريب بدلاً منّي!

ماري : اسكت، ولاتدعني أخرج ما في بطني. كم مرَّة كذبت، وكم مرَّة أنفقت ثمن التابوت!

فارس : أعترف أنّني أخطأت، ولكن هذه آخرتنا ويجب أن نرتِّبها معاً. عشنا معاً طوال هذا العمر، ولن نفترق عند حافة القبر.

ماري : لا يا فارس.. يكفي هذا العمر. سيكون ظلماً لا يرضاه الرب إذا تبعتني إلى الآخرة.

فارس : (متباكياً) وأنا! هل ترمينني كالأيتام؟ ألن يكون لي تابوت؟ ألن تكون لي رخامة؟

ماري : أنفقت ثمن الرخامة مرتين.

فارس : لا أفهم.. هل تنتقمين منّي؟!

ماري : انقضى العمر، وفات الأوان. ذات يوم.. لو ملكت الجرأة. لكن لا.. دَع مافي النّفس راقداً في النّفس.

فارس : (مازال يتباكى) أنا يتيم.. حقّاً إنّي يتيم.. ستحملين وزري عند الربّ. لن أبادلك الكلام بعد اليوم. نعم.. سأحرد، وسنقضي بقيّة العمر كالغرباء.

ماري : ليكن.. إنَّ الله بصير، وهو يعرف من حمل الأوزار فعلاً. (يدخل ثائر).

ثائر : سباح الخير..

ماري : صباحك الخير والبركة.. تعال حبيبي.. ماذا تحمل؟

ثائر : هذا طرزان..

ماري : أهذا طرزان الشّجاع؟

ثائر : نعم.. يد واحدة يهدّ البناية.

ماري : يهد البناية كلّها! من اشتراه لك؟

ثائر : بابا..عندي سر.. **(يخفض صوته)** أنا لا أحبّ بابا.

فارس : عيب يا ولد.. يجب أن تحب بابا.

ثائر : لأحب بابا، ولا أحب عمّو فارس.

ماري : **(ضاحكة)** والله ماقصّرت.. ولماذا لاتحب بابا؟

ثائر : لأنه يضرب ماما. **(يمدّ يده إلى ذراع الماكينة)** هل أدوّرها؟

ماري : لا.. لا.. أبعد يدك.. واوا...

فارس : سأخرج. هل تريدين شيئاً من السوق؟.

ثائر : شكولاته..

فارس : اسكت أنت..

ماري : لا تصرخ في الصبي. لا أحتاج شيئاً.

فارس : طيّب.. **(يتّجه نحو الباب، يتردّد لحظات، يعود متصاغراً)** ماري. لا أستطيع الخروج وأنت زعلانة.

ماري : لا تشغل بالك. لست زعلانة.

فارس : هل أجد معك ليرة؟ لن أصرفها، سأضعها في جيبي للأمان.

ماري : ألم تحرد! ألم تزاعلني!.

فارس : كيف أحرد! ومَن لي في الدّنيا سواك! أنت زوجتي، وأمّي، وأبي.

ماري : وابني!

فارس : ليكن..هو ابنك.. هو ابننا إذا شئت.

ماري : **(تمدّ يدها إلى صدرها، وتخرج قطعة نقود)** خذ.. هذه نصف ليرة.

فارس : اجعليها ليرة يا ماري.

ماري : لافرق بين الليرة ونصف الليرة ما دمت لن تصرفها.

فارس : **(متذللاً)** اجعليها ليرة يا ماري.

ماري : **(تمدُّ يدها إلى صدرها بغضب، وتخرج قطعة نقديّة أخرى)** أنا أكسر ظهري وراء هذه الماكينة، وأنت تكشّ الذباب وتقول هاتي. خذ.

فارس : كثّر خيرك.

(يتاول القطعة بلهفة، يدسّها في جيبه، وينفتل خارجاً من الباب).

ثائر : خالة ماري.. يا حرام.. طرزان، بردان. ما عنده ثياب.

ماري : ماعنده ثياب!. فهمت عليك. تريد أن أخيط له لباساً.

ثائر : أي خالة ماري.. أريد تنورة.

ماري : تنورة لطرزان!. لا.. سأخيط له بذلة عسكرية مثل بابا.

ثائر : لا.. لا أريده مثل بابا.

(تدخل غادة).

غادة : هل جئت تعذّب الخالة ماري؟!

ماري : هو يعذّبني؟ إنّه يسليني، ويبهج نهاري.

ثائر : خالة ماري.. خيّطي تنورة لطرزان.

ماري : تكرم عيونك.. سنعمل تنورة لطرزان.

غادة : ألا يكفي الخالة ماري ما لديها من شغل.. بماذا أساعدك؟

ماري : هل تفرشين لي هذا الكم، ينبغي أن أنهي فستان نوّار اليوم. **(تخرج المقصّ، وتناوله لها ثمّ تتاول قصاصات من القماش، وتعطيها لثائر)** خذ العب بها الآن.

غادة : أي حبيبي.. اخرج إلى الدّار.. والعب هناك.

ثائر : والتنورة!

غادة : سأحملها لك معي.

(يخرج ثائر).

غادة : رأيتك تصعدين في الليل إلى غرفته.

ماري : هل سمعت صراخه؟

غادة : نهضت من الفراش مذعورة، ووقفت خلف النافذة أتنصّت.

ماري : يا حبة عيني. لاشكّ أنّه عانى كثيراً في غربته. قلت له أن يفتح صدره، ولكنّه تهرّب، ولم يشأ أن يثقل على أمّه.

غادة : هذه ثاني مرّة أسمعه يصرخ في الليل.

ماري : إنها كوابيس عابرة. وعندما يصحو يبتسم، ويطيّب خاطري. قولي لي.. هل تحبّينه؟

غادة : آه يا خالة.. ماذا أقول! كنت أسأل أخي دائماً.. ما هي علامات الحبّ؟ وكان يجيبني.. تكون الأيّام رتيبة والرّوح راكدة، فإذا أحبّ المرء يشعر أنّ الأيّام لاتتشابه وأنّ الدّنيا تتجدّد وتزدهر، وأنّ حواسه تستفيق على مذاقات عجيبة.. كلّ شيء يغدو بهجة ولهفة. لا أذكر كلّ ماقاله، ولكن أعرف اليوم أنّ لكلّ كلمة قالها معنىً حقيقيّاً، وأنّ عباراته وحدها هي التي تصف ما أشعر به، وما يجيش في داخلي. نعم.. منذ التقينا وأنا أشعر أنّي أعيش في دنيا جديدة.

ماري : لماذا لم تنتظريه إذن؟

غادة : وهل كنت أعلم!. سامح الله أخي. تخلّى عنّي، وتركني أواجه هذا كلّه وحدي. كان أخي صديقي وحبيبي والنّافذة التي أرى منها الضوء. آه يا خاله ماري. كنّا لانتعب من الحديث وكنّا لانتعب من السّهر. ورغم أنّي أصغر منه، ولا أعرف شيئاً بالقياس إليه، إلاّ أنه كان يعاملني كرفيقة له يحكي لي عن أحلامه وقراءاته. لم يكن يشبع من القراءة، وأسعد لحظاته تلك التي يحمل فيها كتاباً جديداً، ويغوص في صفحاته. كان يختار لي الكتب. كان يشاركني خبرته في الحياة. وكنّا نحلم أن نتابع الدراسة معاً. حزت الكفاءة،

وحاز البكالوريا في سنة واحدة. وكان متفوقاً كعادته وغاب عنّي ذلك الصيف في ترتيب منحته وسفره إلى الخارج. قرّر الوالد أن أكتفي بالشهادة المتوسطة. ولم يبذل أخي مجهوداً فعلياً كي يعود أبي عن قراره. قال لي.. أنت تعرفين أبي وقسوته. لا أريد الآن أن أفسد سفري بالمشاكل. ابقي في البيت، حاولي أن تواصلي الدراسة وسأكتب له من الخارج، وأحاول إقناعه. نعم.. تخلّى عنّي أخي، وسافر. وكان أبي قد أعطى كلمةً لأخيه. وكنت أشعر بالموت بعد سفر أخي. لم أعرف كيف أقاوم، ولم تكن المقاومة ممكنة. وتزوّجت ابن عمّي كاظم، الذي أنفق ثلاث سنوات حتّى حاز الابتدائية. كان تقصيره موضع فكاهتنا وسخريتنا، ولكنّه بعد الزواج عرف كيف ينتقم من الفكاهة والسخرية. لا أخبر أهلي شيئاً عمّا أعانيه. كنت أجد عزائي في الرّسائل الطويلة التي أرسلها إلى أخي. ولكن أخي سرقته الحياة هناك، وصار يزداد بُعداً يوماً بعد يوم. آه يا خالة ماري.. كم مرّة قرّرت أن أقتل نفسي! ولم يكن يردُّني إلاَّ هذه الزّهرة التي أنجبتها. كنت جثّة.. كنت أعتقد أنَّ الحياة لن تكون إلاَّ تكراراً سقيماً للبلادة والعذاب وخواء الرّوح. وفجأة.. تبدّل كلّ شيء. أزهرت الدنيا، وتجدّدت. توهّجت الحواسّ، ولم تعد الأيّام متشابهة.. ولو كنت أعلم، لواجهت العالم كلّه وانتظرت.. لكن كما ترين.. لم تأتِ الأشياء في أوانها.

ماري : حقاً.. لا تأتي الأشياء في أوانها. كان ينبغي أن أنتظر ستّةً وعشرين عاماً. ومع هذا.. ينبغي ألاَّ ندعهم يخطفون هذا الأمل.

غادة : من تقصدين؟

ماري : فارس.. وزوجك.. وربّما آخرون.

غادة : لا.. لم أعد أستطيع أن أتخيل الحياة بعيداً عنه.

ماري : أتسطيعين مواجهة زوجك وأهلك والناس؟

غادة : لاأدري.. يجب أن أستطيع.. ماعاد يهمّني الضّرب، ولن يكون هناك عذاب أشدّ وطأة من فراقه.

ماري : آه يا حبيبة.. لو عرفت ماري كيف تواجه، لوفّرت على نفسها شقاء ثلاثين سنة. إيه.. انقضى العمر. ولم نذق منه إلاّ المرار.

غادة : هل شقيت كثيراً يا خالة! لماذا لا تفتحين لي قلبك؟

ماري : طبعاً.. طبعاً.. ذات يوم سأفتح لك قلبي كما فتحته لابني. ولكن مصيرك هو مدار الحديث يا غادة. أنت الآن في أوانك.. عليك أن تكوني قويّة، وأن تعزمي على المواجهة.

غادة : علّميني يا خالة.. ماذا ينبغي أن أفعل.. لم أعد أبالي.. ويوماً بعد يوم أشعر أنّي أزداد قوة.

ماري : علينا أن نغسل غربته، وأن نحميه.

غادة : سأفعل كلّ ما يطلبه منّي. ولكنّه لا يطلب شيئاً.

ماري : نعم.. إنّه يفضل أن يعطي. منذ أيامه الأولى شعرت أنّه جاء كي يقاسمني همومي. ناداني أمّي.. وبلطف حنون استدرجني كي أحكي ماقاسيته من الجور والحرمان. تحدّثت.. وتحدثت. وكنت أحسّ أني أتناول روح النعناع.. صدري يتّسع، ويتفتّح.. والهواء ينفذ بارداً ومنعشاً إلى رئتيّ.

غادة : نعم.. إنّه يحسن الإصغاء، ويغري بالبوح. منذ سافر أخي لم يصغ إليّ أحد. في عينيه لمعة حزن تفتّت القلب، وتجعل المرء ينسى نفسه. أحياناً أشعر أنّه لم يسكن هذا البيت إلاّ لكي يرتّب سفره القادم. هل أخبرك مرّةً كم ينوي الإقامة؟

ماري : لا.. لم يخبرني. ولكن قلب الأمّ دليل يا غادة، وأنا أعرف

أنّه لم يأتِ لكي يلبّي لهفة أمّه فقط، بل جاء بحثاً عنك أيضاً.

غادة : أتظنّين.. لا نكاد نتبادل البوح حتّى ينفتل ويبتعد محزوناً. لا أدري ماذا يخفي!

ماري : إنّه يخاف عليك.. وهو يكبس على جرحه كي لايسبّب لك المتاعب والأذى. تصوّري لو أنّنا في هذا البيت نحن الثلاثة فقط.

غادة : والطفل يا خالة؟

ماري : نعم.. والطّفل معنا. أتعلمين.. سأرتّب له حياته كما يرتّب لي آخرتي. سأجدّد أثاث غرفته، وأجهّزها للعرس.

غادة : أي عرس؟

ماري : عرسكما يا غادة.

غادة : أتحلمين يا خالة؟

ماري : يجب أن تحلمي يا غادة. ستختاران ليلة، وسيكون لكما عرس بهي.هل يمكن أن تحدث بيننا مشاحنات الكنّة والحماة.

غادة : أعدك ألا نتشاحن أبداً.

ماري : طبعاً لن نتشاحن. أنت فتاة طيّبة، وحنونة. وأنا لا أريد إلاّ أن أموت ميتةً رضيةً بين يدي ابني، الذي انتظرته طويلاً.

غادة : لاتقلبي الفرح حزناً.. أطال الله عمرك.

ماري : إن الموت بالنسبة لي هو الفرح. إنّي أترقّبه يا غادة، كما تترقّبين ليلة عرسك. هناك.. سأجد المباهج والأفراح التي فاتتني في هذه الدنيا.

(يدخل ثائر حاملاً قبعةَ أبيه العسكرية).

ثائر : ماما.. ماما.. طرزان عملها. بالطّاقية. حسبها نونية.

غادة : **(تتناول الطّاقية المبلّلة)** ماذا فعلت بالطّاقية.. هل تريد أن

يضربك أبوك؟

ثائر : لا أحبّ بابا..

ماري : والله ما قصرت..

ثائر : لازم يضرب طرزان لأنّه حسبها نونيّة.

ماري : تقبرني.. ما أذكاك! لايستحقّ إلاّ نونية.

غادة : وفي النهاية.. لن تطلع الدقّة إلاّ برأسي.

ماري : علامَ اتفقنا؟

غادة : نعم يا خالة ماري.. سأواجه، وسأحلم أيضاً.

ماري : هذا هو الكلام. سنواجه، وسنحلم أيضاً. هل يتغدّى من يدك أم من يدي؟

غادة : سيكون الغداء عليّ. يا الله ياثائر..

ثائر : (وهو يتبع أمّه) والتنّورة! أريد تنّورة لطرزان.

ماري : تكرم عيونك.. ستكون جاهزةً بعد الغداء.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(كاظم وفارس يجلسان في ركن منزوٍ من مقهى شعبيّ. كاظم يرتدي ثيابه العسكرية).

كاظم : (يصفق بيديه، ويتلفّت نافد الصّبر) أين هذا البطيخ؟

فارس : (وهو ينهض بتذلّل) لعلّه لم يسمع. سأحضره لك.

كاظم : لا يا زلمة.. عيب.. ابق جالساً. (يعلو صوته) يا أخ.. يا أستاذ..

النادل : حاضر.. حاضر.. إنّي آت.

فارس : إيه.. أيّام زمان، كان الجرسون أخفّ من الطّير. يقف بين يدي الزبون قبل أن يجلس على الكرسي.

النادل : أهلاً يا أبا الفوارس.. ماذا تأمران؟

فارس : خذ طلب كاظم أفندي..

كاظم : لا أفندية ولا بكوات. كم مرّة قلت لك! هذه ألقاب رجعيّة، والثّورة قضت على الرجعيّة وألقابها.

النادل : يا عيني على الكلام الظّريف.. لا أفندية ولا بكوات وكلّ الناس قهوتهم سادة. ماذا تأمران؟

كاظم : لاتطوّل لسانك.

النادل : معاذ الله.. وهل هناك أحلى من أن يكون النّاس كلّهم سادة؟!

كاظم : ماذا تطلب يا عمّ؟

فارس : لا.. اطلُبْ لك. أنا لا أريد شيئاً.

كاظم : لايجوز.. ينبغي أن تشرب شيئاً.

فارس : **(بذلة)** لا أريد أن أكلفك.

كاظم : أهذه كلفة؟ اطلب يا رجل.

النادل : اطلب يا أبا الفوارس، المقهى على حسابك.

فارس : طيّب.. هات لي فنجان قهوة وسط ونرجيلة.

كاظم : وهات لي فنجان قهوة سادة.

النادل : حاضر.. **(وبصوت مرتفع)** وعندك واحد وسط، وواحد سادة.

فارس : توصَّ بالنرجيلة. أريد التنباك عجمياً.

النادل : **(وهو يبتعد)** لاتوصِّ حريصاً يا شارب الـ عشت.

فارس : امش، خزاك الله.. أربكتني يا كاظم أفندي.. كيف تريد أن أناديك؟

كاظم : ناديني.. حضرة المساعد أو سيّد كاظم، ولكن دَعْني من الأفنديّة والبكوات.

فارس : معك حقّ.. ولكن ماذا أفعل؟! آخذ لساني على كلمة أفندي وكلمة بيك.

كاظم : والآن.. درّب لسانك على كلمة يا سيّد أو كلمة يا رفيق.

فارس : حاضر يا كاظم أفندي.. العفو. قصدي ياحضرة المساعد.

كاظم : طيّب.. دعنا ندخل في الموضوع. ما هو الأمر الهامّ الذي تريد أن تحدّثني به؟

فارس : آه يا سيّد كاظم.. من أين أبدأ؟ لا أستطيع أن ألوم أحداً سواي. **(يضرب وجهه بمبالغة مكشوفة)** نعم.. أنا الملوم، وأستحق الضرب على رأسي بالصّرامي.

كاظم : ماذا هناك؟

فارس : **(يمدّ يداً متردّدة)** هل أستطيع أن أستعير سيجارة؟

كاظم : خذ سيجارة وخلّصني.. ماذا هناك؟

فارس : لن يرتاح ضميري إذا لم أضعك في الصّورة.. إنّه المستأجر الّذي يسكن الغرفة العلويّة. تصوّر.. أنا الذي أجرّته، وحملت له حقيبته.

كاظم : وما له المستأجر! بخشت أذني، وأنت تمدحه لي. شاب مثالي تربّي على الأصول والأخلاق الحميدة، وأنّه أحيا فيك البهجة والأمل.

فارس : أنا الملوم، وأستحقّ الضرب على رأسي. تصوّر.. ضحك على ذقني، وأقنعني أنّه سيعلمني بعد هذا العمر القراءة والكتابة. كان يحضّر الشاي، ويدعوني للجلوس. يا الله.. ما أدهاه! إنّه يفتل عقل الإنسان كما يشاء. تصوّر! كدت أعتقد أنّ لديّ الإمكانيات، وأنّ عجوزاً مثلي مازالت أمامه فرص وآمال.

كاظم : هذا شيء طيّب.. يعلمك القراءة، وأنت تشرب الشاي، وتدخن.

فارس : كان ذلك احتيالاً. إنّه داهية بسبعة وجوه. لو اقتصر الأمر عليّ، لتحمّلت ولكنّه فتل عقل.. تلك المسكينة ماري. ومن يدري ماذا يفعل أيضاً!

(يأتي النادل حاملاً القهوة ونرجيلة).

النادل : هنا قهوة سادة.. وهنا قهوة وسط.. وهذه هي النّرجيلة يا أبا الفوارس.

فارس : هل توصّيت بالتنباك؟

النادل : توصيت وزيادة.

(يبعد النادل، يتناول فارس النربيش بحركة نهمة، ويشفط عدة أنفاس متلاحقة، بينما يرتفع صوت بقبقة الماء في النرجيلة).

فارس : تصوّر يا حضرة المساعد.. لعب بعقل المسكينة ماري، وأقنعها أنّه ابنها وأنّها أمّه.

كاظم : حتّى الآن لم أفهم شيئاً. هل تعني أنّه يلاطفها! ويناديها أمي!

فارس : لا يا حضرة المساعدة.. ليست ملاطفة.. الأمر أخطر.. أقول لك إنّه محتال كبير. لو تسمعها كيف تتحدّث عنه! إنّها موقنة أنّه ابنها، وأنّه ذلك الطرح، الذي أسقطته منذ ستّة وعشرين عاماً.

كاظم : ما هذه القصّة.. أيبلغ الوهم هذا الحدّ!

فارس : لا أدري إن كان وهماً أو جنوناً.. تقول سَحَرَها، وسيطر عليها!. إنّه محتال كبير. تصوّر. منذ أيّام كشّر في وجهي وقال لي.. لا تعذّب أمّي. وهي كالممسوسة لا تتعب من الحديث عن ابنها الذي عاد من الغربة. وأخشى الآن أن تسلّمه الحيلة والفتيلة.

كاظم : قل لي.. لماذا لم تنجبا أولاداً؟

فارس : إرادة الله.. منذ ستّة وعشرين عاماً حملت، وأسقطت في الشهر السادس. (هامساً) العيب فيها.. هي تعتقد أنّي السّبب. وقلت في نفسي.. يا ابن الحلال لاتصدمها مادام هذا الاعتقاد يريحها.

كاظم : لم أعرف حتّى الآن أين هي المشكلة.. إذا كنت مقتنعاً أنّه محتال، وأنّه يضمر لك الأذى، فلماذا لا تطرده؟

فارس : وكيف أطرده؟

كاظم : قل له.. نريد الغرفة، وافرقنا بربح طيّبة.

فارس : البيت لماري. وماري تبدّلت، ولم تعد هي ماري التي أعرفها، والتي أمضيت عمري معها. يا الله.. هي الطيّعة الوادعة تنقلب لبوة شرسة، إذا حاولت أن أكذّب يقينها وأكشف حقيقته! لا.. لن تسمح ماري بطرده. وإنّي أعتمد عليك يا

حضرة المساعد في هذه المسألة.

كاظم : تعتمد عليّ؟ وماذا تريد أن أفعل؟

فارس : (بلهجة مراوغة) أعتقد أنّ من واجبك أن تتدخّل.

كاظم : لماذا.. هل تعتقد أنّه معادٍ.. بالمناسبة لم تقل لي.. ما هي آراؤه؟ وهل لديه ميول سياسيّة؟

فارس : إنّ أحواله تثير الشكوك. تصوّر.. حتّى الآن لانكاد نعرف عنه شيئاً. يقول إنّه يدرس الحقوق، ولكنّه يظلّ طوال النّهار في البيت، ولايخرج إلاّ في الليل. هذا السلوك وحده يثير الشّكوك.

كاظم : ألا يتحدّث عن الثّورة والأوضاع التي تمرّ بها البلاد؟

فارس : لاشكّ أنّه يخفي شيئاً. ولكنّه أدهى من أن يترك لك مأخذاً. أستطيع أن أجزم أنّ وراءه سرّاً، وأنّه ليس بعيداً عن السّياسة. ولكن ما أخشاه هو أمر آخر.. سيعذّبني ضميري إن لم أكشف لك عن مخاوفي. نعم.. أنا الملوم. كان ينبغي أن أتبصّر في الأمر منذ البداية. ما كان يجوز أن أقبل عازباً في بيت تسكنه عائلة كريمة ومحترمة.

كاظم : (متضايقاً) إنّك الآن تغنّي موالاً غريباً. إلامَ تلمّح؟

فارس : لاشيء.. هذا خطئي من البداية. كان ينبغي أن أقدّر أنّه لايجوز وجود شاب عازب، وامرأة تقطر ذوقاً وحلاوةً في بيت واحد. ولكن.. هل كنت أعلم أنّه سيلزق في البيت طوال النّهار، بينما يشقى الرّجل في عمله وأداء واجبه؟ أقسم لك أنّي فزعت حين أدركت الوضع، وقرّرت ألاّ أغادر البيت إلاّ لطارئ لا يؤجّل.

كاظم : عمّ تحكي أيّها الرّجل؟ كفاك لفّاً ودوراناً. هل لاحظت مايشين زوجتي؟

فارس : لم ألاحظ إلا أموراً صغيرة، وإبليس كما تعلم يدخل من خرم ا

الإبرة. لا.. سامحني يا ربّ.. لا أضع بذمّتي أيّ شيء رديء.

كاظم : وما هي هذه الأشياء الصغيرة؟ تكلّم بصراحة، وإلاّ حشوت رأسك برصاصة.

فارس : دخيلك.. ليتني قطعت لساني، ولم أتكلّم. لا أريد أن تغضب. أنت تعرف معزّتك عندي، ويشهد الله أنّ عرضك هو عرضي. ما قصدته هو أنّ الحذر واجب، وأنّ علينا أن نبعد أسباب الفتنة قبل وقوعها.

كاظم : حقّاً.. إنّك رجل وضيع. أتثير الشّبهات حول امرأتي كي أخلّصك من مستأجر يضايقك؟

فارس : يا حضرة المساعد يقولون.. لادخان بلا نار. والشبهات لاتولد بلا أسباب. خذي هذا الكتاب.. وهل قرأت هذه الرّواية؟ ودعوة على فنجان قهوة..

كاظم : سأقتلك أيّها العجوز.. ما تقوله خطير. احذر.. أريد أن أعرف. هل رأيت شيئاً مؤكداً؟

فارس : لا.. إنّي لا أضع شيئاً في ذمّتي. هي خواطر وأشياء صغيرة.. وأشعر أنّ ضميري لن يرتاح إذا لم أخبرك بها.

كاظم : اسمع.. أنا الليلة مناوب، وسأجعلك تدفع غالياً ثمن هذه الخواطر والتلميحات الوضيعة.

فارس : حلّفتك بالله لاتغضب.. إنّي أقوم بالحراسة.. يا سيّدي اعتبرني كلب الحراسة في البيت.. وأنا أعتبر عائلتك مسؤوليتي، ومن مصلحتنا جميعاً أن نتخلّص من هذا المحتال. وكما يقول المثل، لاتنم بين القبور ولا ترَ منامات مفزعة. إذا تخلّصنا منه يهدأ البال، وتنقطع الشبهات.

كاظم : أعرف أنّك لست خالص النية. ولكن معك حقّ. لا أحتمل أن تحوم الشبهات فوق بيتي.

فارس : يا سيّدي.. أنا بين يديك. فعلت ما يفعله الحارس الأمين، والباقي عليك.

كاظم : أيها العجوز.. هيّئ نفسك عند منتصف الليل. ومادام هناك قيل وقال، فلن يبيت هذه الليلة في البيت.

فارس : هكذا يكون الكلام.. حيّي الله الرّجال.. ستجدني معك، وإلى جانبك. والمهم أن نتخلّص من هذا المحتال.

كاظم : إذن موعدنا الليلة.

فارس : ستجدني جاهزاً.

(ينهض كاظم، ويغادر المقهى، بينما يسترخي فارس متلذّذاً برشف نرجيلته).

فارس : ومن يحتاج إلى ابن! لاتفرحي يا ماري.. لن أقبل أن يزيحني ابن من حضنك ورعايتك.

(تستمر قرقرة النرجيلة فترة، ثمّ تتلاشى مع الإضاءة ببطء).

المشهد الخامس

(الغرفة العلويّة التي يقطنها المستأجر بشير. المكان مرن ومتغيّر وكلّ شيء ينوس بين الحلم والواقع. يبدو بشير مسترخياً، وهو يضع رأسه في حضن ماري، التي تبدو متغيّرة الهيئة).

ماري : آه يابني.. أين سافرت؟

بشير : ابتعدت عن النّهر لأنّي أخاف منه.

ماري : الماء يجري، ويجري.. وأنا في مكاني أنتظر.. انتزعه منّي، ورماه في النهر ثمّ بصق. والماء يجري وأنا في مكاني أنتظر.

بشير : غنّي لي أغنية.

ماري : نسيت أغاني الأمّهات.

بشير : كان يهدهدني صوتك الشجي، وهو يموج بأغنية أبو الزلوف.. ما أبعد أيّام الطفولة.. هل عذّبك أبي؟

ماري : لاتقل أبي.. آه.. كلّ يوم حقنة.. حقنة غليظة كالمسلّة.. انظر.. ازرقت عجيزتي، وامتلأت بالدمامل والانتفاخات. **(ترفع رأسه، وتشمّر فستانها فتكشف عن عجيزتها المترهّلة)** انظر كيف صارت عجيزتي!

بشير : **(متحاشياً النظر)** لا.. لا، غطّي فخذيك يا أمّي.

ماري : **(وهي تضحك ضحكة غريبة)** هل تخجل! أنا أمّك. انظر كيف تشوّهت عجيزتي.

بشير : لا أستطيع أن أنظر.

(ماري تجذبه من رأسه، وتعيده إلى حضنها).

بشير : يجب أن أنهض.

ماري : لاسفر بعد اليوم..

بشير : لا أريد العيش قرب النّهر.

ماري : الماء يجري ويجري وأنا أنتظر في مكاني.

(تسقط بقعة ضوء شديدة السّطوع على فارس وقد تبدّلت هيئته قليلاً، إنّه صارم الملامح، ثابت النظرة وله شاربان غليظان، ويعتمر كوفيّة وعقالاً).

فارس : تعال يا ولدي..

بشير : هل تأخّرت عن الحصاد يا أبي؟

فارس : أنت بكري يا بشير، وهذه السنة أمامك حصادان.

بشير : لا تشغل بالك.. سأنوب عن حصّادين.

فارس : ماذا تعلّمك المدارس؟ هل أضعفت فيك النّخوة؟ لنا عادات وتقاليد لايتخلى عنها المرء مادامت فيه مروءة أو حياة.

بشير : عرفتك.. عرفتك.. إنّك فارس.

فارس : ماذا تقول يا ولد؟ أنا أبوك.. وقد حان الوقت كي تحمل إرثي، وتطهّر سيرتي.

بشير : أبي..ماذا تريد منّي؟

فارس : إني أتكلّم عن أختك.

بشير : ما لها أختي؟

فارس : فضحتنا بين الأهل والأعداء، ولن يستحق ابني البكر مكانته في العشيرة، إذا لم يطهّرنا من هذه الوصمة.. انظر.. انظر **(يشق قميصه فتبدو على صدره الأيسر كتلة لحميّة زرقاء داكنه تشبه الضرع أو الثدي)** ماذا أصاب أباك؟

بشير : **(مجفلاً)** ماهذا؟

فارس : هذا هو العار الأسود. نعم.. صار لأبيك ثدي كالنّساء. **(يمسك بيديه كتلة الثدي)** نعم. ثدي وله حلمة. تعال..المسه.

بشير : **(يتراجع)** لا.. لا أريد.

فارس : وفيه حليب أيضاً.. حليب أسود وسامّ. انظر كيف يسيل الحليب حين أعصره.
(يعصر الكتلة فيسيل منها سائل شديد السّواد واللّزوجة).

بشير : ما أفظع الرّائحة!

فارس : نعم.. هذه هي الرّائحة التي فوّحتني بها أختك.

بشير : ماذا فعلت؟

فارس : ألا تشمّ بخرها؟ تفو.. لقد أحبّت. خبأت لك المهمّة. ستكون البكر الذي يسند ظهر أبيه، ويحمل ميراثه.

بشير : أبي..

فارس : لا أريد اعتراضاً أو فتوراً. خذ.. **(يسحب من حزامه خنجراً مرصّعاً، ويقدّمه لبشير)** هذا خنجر أبيك.. طهّره واحتفظ به. اصحبها إلى الحقل المجاور للنهّر. وحين تنتهي من الحصاد، اغسل يديك بدمها. لاتقتلها قبل أن ينتهي الحصاد. وأقول لك.. لن يهدأ غضبي وتختفي عاهتي إلاّ إذا رأيت دمها يقطر من خنجري. **(يقترب منه وهو يعصر الكتلة السّوداء في صدره. والسّائل الأسود يجري بغزارة على كمّه وثيابه)** املأ خياشيمك بالرّائحة. شمّها ...
(يحاول فارس أن يضع صدره في وجه بشير، الذي يتراجع متقزّزاً وخائفاً).

بشير : لا أستطيع..

فارس : شمّها.. املأ رئتيك بها.

(يقهقه قهقهة لها صليل معدني ويختفي. يرفع بشير أصابعه عن أنفه، ويقلب الخنجر بين يديه، يسحبه من غمده ثمّ يعيده بحركة نافرة. تظهر غادة في ثياب فلاّحة وهيئة مختلفة).

غادة : ما هذا؟ هل تحمل خنجراً؟

بشير : إنّه خنجر أبي.

غادة : **(برنّة حزينة)** حقاً.. إنّه خنجر أبي. هل تريد أن تقتلني؟

بشير : لا أدري..

غادة : **(ضاحكة)** أحب الحصاد. سنتسلّى كثيراً أنا وأنت.. وحدنا في الحقل. يا الله.. هيأت المؤونة والزوّادة. احمل عدّة الحصاد واتبعني.

(تختفي بحركة رشيقة).

ماري : **(دون أن نراها)** ابق هنا..

بشير : يجب أن أمضي.

ماري : لا تصغ إليه. ما رأيته على صدره قديم جداً. اسألني أنا.

بشير : ومع هذا.. يجب أن أذهب.

ماري : إنّ الدمامل تملأ عجيزتي، ولا أستطيع أن أتبعك. ابق هنا.. منذ عرفته وهو ينشر الموت حوله. لا ترحل يا بني.. لا ترحل يا بني..

(يتغيّر المشهد.. خيمة في العراء، أكوام من حزن السّنابل، ليلة مقمرة، غادة نائمة وقد انحسر فستانها عن فخذها.. يجلس بشير قريباً منها.. يختلس نظرات إلى فخذها، ثمّ يحوّل وجهه بحياء. بعد قليل يمدّ يده إلى الفخذ المكشوفة ويلمسها برقّة. يسحب يده كالملسوع، يتاول الخنجر، يخرجه من غمده، ويتلاعب بانعكاسات ضوء القمر على النّصل. فجأة ينكبّ على الفخذ، ويقبّلها. تدهمه رعشات متلاحقة فيبتعد، ويضغط حضنه بيده).

بشير : ملعون أنت.. لا.. لا تقذف.. إيّاك أن تقذف.

(تنهض غادة بهدوء، وتتربّع جالسة).

غادة : هل لمستني أم كنت أحلم؟

بشير : **(غاضباً)** لم ألمسك.. أنت قليلة الحشمة. لماذا لاترتدين

سروالك؟

غادة : غسلته، ولم يجفّ بعد.. لماذا لم تدعني أغسل ثيابك؟

بشير : انتهى الحصاد.

غادة : نعم.. لقد انتهى الحصاد. انظر إلى القمر.. كم هو قريب ومضيء!

بشير : نعم، إنَّ نوره فضّاح.

غادة : أما حان الوقت؟

بشير : نعم.. لقد حان الوقت.

غادة : هل سحبت الخنجر كي تقتلني؟

بشير : نعم..

غادة : لو تفعلها وأنا نائمة.. لاتؤلمني كثيراً.

(ينخرط بشير بالبكاء، ويميل برأسه على كتفها ويعانقها).

بشير : **(وهو يَشرَقُ بدموعه)** لا أستطيع.. لا أملك الشجاعة.. إنّي أحبّك.

غادة : أتبكي؟ لا يا أخي.. أنا لا أساوي دمعة من عينيك.. اهدأ.. اهدأ.. سأجنبّك هذا الامتحان. آه.. ما أجمل القمر هذه الليلة! ما هذا الشّعر الذي تردده دائماً.. ردّده لي مرّة.

بشير : نسيت الشّعر.

غادة : حين تتذكّر.. ردّده، وسأسمعك أينما كنت.

(تقبله على جبينه، وتنهض بحركة بطيئة، تتناول السّروال المنشور على شمائل القمح، ترتديه وتمضي بخطى هادئة وحالمة).

بشير : أين تذهبين؟

غادة : إلى النهر.

بشير : أحقاً تذهبين؟

غادة : النّهر ينادي.. وسأفعل ما ينبغي فعله. اذهب إلى قبر أمّي،

وسلّم عليها.

بشير : عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر. يا ربّ.. إنّ النّهر يهدر.. إنّها تغيب.. ما الذي يشلّ ساقيّ؟! لماذا لا أستطيع أن أتحرّك؟. أريد أن أنقذها. انزع قدميك من الطّين.. وأسرع.

(يحاول جاهداً أن يرفع ساقيه ولكنّه يعجز. إنّهما تغوصان في الأرض. يبدو عليه العناء والفزع).

بشير : إني أغوص.. (صارخاً برعب) الطّين.. الطّين.

(فجوة معتمة تستمرّ فترة. ثمّ تظهر غادة وهي ترتدي منامة شفّافة. المكان غامض يشبه عليّة في بيت ريفي).

غادة : **(وهي تمسح على رأسه)** لاتخف.. **(تمدّ له قدحاً من الماء)** اشرب.. إنّ ريقك ناشف.

بشير : لم أستطع قتلها. رمت نفسها في النّهر كي توفّر عليّ الامتحان. كنت أغوص في الطّين والماء يبلعها. تخلّيت عنها. تخلّيت عنها.

غادة : هذا منام.. ألا ترى! إنّي قربك.. ولم تتخلّ عنّي.

بشير : جمّدني الرّعب.. ولكن كيف أتيت؟

غادة : ألا تريدني أن آتي؟

بشير : لا أريد أن تتهوّري. سأمقت نفسي لو تعرّضت للأذى.

غادة : لا تقلق.. هذا الفرح الذي أحسّه يعوّض أيّ أذىً، ويشفيه.

بشير : أتظنين؟!

غادة : بل أنا متأكدة. كنت أختنق وأهترئ. زنخ وهواء فاسد، وفجأة جئت.. حاملاً الشّمس والهواء النقي. آه.. كم انتظرتك!

بشير : وأنا.. كم بحثت عنك؟ لا أصدّق أنّ مثلي يمكن أن يحمل الشمس والهواء.

غادة : ولماذا لا تصدق.. ألا ترى كيف تغيرت حياتي؟
بشير : أين هو.. هل رأيت أبي؟
غادة : لا.. لم أره.البيت خال، والحي خال، ولا يوحد إلاّ أنا وأنت.
بشير : هذا فخّ. ينبغي أن أعيد له الخنجر.
غادة : لن تجده. ذهب الجميع وراء الجنازة.
بشير : نعم.. الجنازة. كان يجب أن أدسّ الخنجر في طيات الكفن.
غادة : لا.. احتفظ به. لن تستطيع أن تعيش دون خنجر.
بشير : أتعلمين.. قبّلت فخذك، وأنت نائمة؟
غادة : كنت أتظاهر بالنّوم.
بشير : أكنتِ دائماً تتظاهرين بالنّوم؟
غادة : نعم.. وكنت أرتعش رعشات غريبة.
بشير : هذا مستحيل.. بيننا موت ودم حرام.
غادة : نعم.. مستحيل. لكن.. ما باليد حيلة.. انظر.. إنّنا نرتعش.. هات يدك.. المس صدري. آه.. لمساتك طيّبة ولذيذة..
بشير : إنّي أتبلّل. (برعب) ابتعدي.. ابتعدي.. جاء أبي.

(تختفي غادة، بينما يتّخذ بشير وضعية مخاتلة وبريئة).

بشير : (بعذوبة) عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.

(فجوة معتمة، بعد قليل يقتحم كاظم وفارس المكان).

كاظم : هذا هو المشبوه إذن! جبان.. خائن.. تتسلّل من وراء ظهور الرّجال، وتعبث بالأعراض.
بشير : كنت أقرأ الشّعر.
كاظم : نحن نعرف ماذا يعني شعر المشبوهين والخونة.
فارس : إنّه عدو الثّورة.
بشير : الشّعر بريء وجميل.

(يسحب كاظم مسدّسه، ويطلق عليه رصاصة في صدره).

كاظم : اذهب.. واقرأ شعرك للأموات.

فارس : حيّاك الله. محتال مثله لايستحقّ إلاّ رصاصة.
كاظم : هيّا شمّر عن زنديك، وساعدني.
فارس : ماذا تريد أن أفعل؟
كاظم : سنحمله، ونرميه في برميل الزبالة.
فارس : نعم.. هذا مايليق به.
بشير : **(وهما يحملانه)** لست ميتاً.. لا.. لم أمت. عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر..

(يختفي المشهد ببطء.. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(غرفة كاظم وغادة. الصّغير نائم وغادة تبدو وكأنّها استيقظت من حلم فظيع. يدخل كاظم باشّ الوجه).

كاظم : ألم تنامي بعد؟

غادة : الآن صحوت. لماذا عدت مبكّراً؟

كاظم : اشتقت لك.

غادة : كأني سمعت ضجّة وأصواتاً.

كاظم : لاشيء.. دحرجت ذلك الشّابّ المحتال، ورميته مع حقيبته خارج الدار.

غادة : **(منتصبة)** ماذا فعلت؟

كاظم : طردته من البيت.

غادة : وبأي حقّ تطرده. أهي دارك؟

كاظم : وفيمَ يهمّك أمره! إنّه مشبوه، وليحمد الله أنّي رميته في الزّقاق لا في السّجن.

غادة : ولكنّه مستأجر مثلنا، والبيت له أصحابه. فما علاقتك أنت؟

كاظم : كان صاحب الدّار معي. ولكن قولي لي.. لماذا يضايقك طرده؟

غادة : إنك تتصرّف وكأنّك الحاكم بأمر الله.

كاظم : نعم إنّي الحاكم بأمر الله في هذا البيت. هل تعتقدين أنّي غافل عنك؟ تدور حولك أقاويل يا ابنة العمّ. ماذا كان بينك

وبينه؟

غادة : (تواجهه بغضب يائس) أتريد حقّاً أن تعرف؟

كاظم : احذري.. ولا تجعلي براكيني تتفجّر.

غادة : أتريد أن تعرف أم لا؟

كاظم : ستجعلين هذه الليلة جحيماً.

غادة : هي الجحيم في كلّ الأحوال يا ابن عمّي. لا تَجرِ وراء الأقاويل، واسمعها منّي.. أعتقد أنّي أحبّه.

كاظم : (ببلاهة) أعيديها.

غادة : إني أحبّه.. إنّي أحبّه.. إنّي..

كاظم : (بصوت مرتفع ومتوسّل) لا.. لا.. لاتكرّريها. يا ربّ. هل أنت يائسة إلى هذا الحد! أتفتشين عن الموت؟

غادة : لايهمني الموت.

كاظم : قصمت ظهري يا ابنة عمّي. ربّما قسوت عليك، ولم أعرف كيف أعاملك معاملةً طيبة. ولكن ينبغي أن تعلمي أنَّ قلبي لم يتعلّق بامرأة سواك. بيننا طفولة وقرابة وحياة. أنا أعرف كيف ربّاك عمّي.. ولا أصدق ما تقولين. سأنسى ما سمعتُ، وانسي ما قلتِ. لا تدعي الشّر يدخل بيننا.

غادة : (تنفجر بالبكاء) طلّقني يا كاظم. يبدو أنَّ زواجنا كان خطأً فادحاً.

كاظم : لا يا ابنة عمّي.. في عائلتنا لايوجد طلاق. ولاتنسي أنَّ أبوينا ربطا، ومنذ الطفولة، بين قدرينا، ولن أفكّ رباط الآباء إلاَّ بالموت.

غادة : إنَّ بقاءنا معاً عذاب لا يحتمل.

كاظم : ألا ترين أني ألاينك، وأحاول أن أُمسك شيطان غضبي؟ سمحت لك أن توجّهي لي إهانة لا يتحمّلها إلاَّ الديّوث من الرّجال، فاستري الطابق، ودعي الليلة تمرّ على خير.

غادة : طلّقني يا كاظم.
كاظم : اخرسي.. ولا تكرّري هذه اللّفظة مرّة أخرى.
غادة : دعنا نتكلّم بهدوء.
كاظم : انتهى الكلام، واعلمي أنَّ مصيرك مقرون بمصيري حتّى الممات. يبدو أنّي أخطأت إذ لابنتك، وأخطأت إذ تجاوزت كبريائي، وحدّثتك كالمراهقين عن حبّي.. أنت ملكي وأنا مستعدّ للخوض بالدّم من أجل ما أملك. كيف استطعت أن ألجم غضبي؟ أنت تحتي وستظلّين تحتي حتّى يلفّك الكفن.
غادة : طلّقني.
كاظم : لم أكن أريد، حاولت أن ألجم شيطاني، ولكن يبدو أنّكِ لاتستطيعين النّوم دون بهدلة.
غادة : طلّقني.
كاظم : **(ينهال عليها ضرباً ورفساً)** أتريدين الطلاق؟ خذي إذن.
غادة : **(كالمنومة وهي تتلقّى الضّربات دون أن تحاول تفاديها)** طلّقني.
كاظم : **(أنفاسه تتلاحق)** توقّفي.. توقّفي..
غادة : طلّقني.
(تسقط غادة، يستيقظ الصغير وهو يبكي ويصرخ).
ثائر : ماما.. ماما.. لاتضرب ماما.
كاظم : ابق في فراشك يا بني. خزى الله الشيطان.
(يحضر ماءً ومنشفة. ينحني على غادة ويمسح وجهها بالماء، ويجفّف الدّم ثمّ يحملها بحنان ويضعها في السّرير).
ثائر : ماما.. ماما.. **(يترك فراشه ويأتي إلى أمّه)** ماما.. ردّي عليّ.
كاظم : لاتخف.. ستردّ عليك بعد قليل. اتركها الآن وتعال معي.
ثائر : لا.. أنا خائف.. ماما.
غادة : **(تتحامل على نفسها وتمدّ يدها لترفعه إلى السّرير)** يا عيون

ماما.. تعال جنبي.

(ينخرطان معاً في البكاء، بينما يشعل كاظم سيجارة ويدخنّها بشراهة).

كاظم : خزى الله الشيطان.. هذه الليلة بالذات ماكان يحقّ لك. أفسدتِ فرحتي. تخلّصت من ذلك المحتال، ونزلت كي أخبرك. إنَّ أمامي مستقبلاً طيّباً يا غادة. اليوم أخبروني.. سيوكلون لي وظيفة مرموقة في الأمن. هذا باب واسع ينفتح أمامي. طبعاً.. سيعلو مقامي ودخلي. ستكون أمامنا حياة رغيدة، وستنسى هذه المناكدات. نعم.. ستتغير حياتنا. لا أطلب منك إلا الطّاعة ومداراة عِرق الغضب في صدري. آن الأوان كي تكون لنا حياة لائقة. ووظيفتي الجديدة تقتضي أن تكون حياتي العائلية لائقة.. وأن يكون بيتي حصيناً لايلطّخ بياضه القيل والقال. نعم.. يجب أن تتغيّر حياتنا.

(يفرغ من تدخين سيجارته.. ينهض إلى النّوم، يطفئ الضّوء على شهقات بكاء مكتوم).

المشهد السابع

(أرض الدّار. غادة تقرفص أمام مواعين وسطل ماء، وتنهمك في تنظيف كرش خروف. تنزل ماري على الدّرج الذي يؤدي إلى الغرفة العلويّة وهي تحمل صينيّة عليها ركوة وفنجانا قهوة. تجلس قرب غادة).

ماري : لم يعد لقهوة الصّباح نكهة. كلّ يوم، كنت أصحو ملهوفةً ونشيطة. أهيّئُ ركوة القهوة، وأصعد إليه. نشرب قهوة الصباح على مهل. كان مذاق القهوة ودوداً وطيّباً. كان يغمرني بالدّفء والطمأنينة.. يسألني عن أيّامي الفائتة فيطيّب نفسي، ويقسم أن يعوّض لي بعض عذابي.. مازلت أحمل الصّينية، وأطلع إلى الغرفة أفضفض عن صدري بالبكاء، وأحدّثه عن الوحشة التي خلّفها غيابه. ظهر، واختفى كأنّه منام.. أما زلتِ تلومينني؟ إنَّ وجعي أعظم من وجعك. لا أدري ماذا حلَّ بي تلك الليلة. كان نومي كابوساً ثقيلاً. طوال الليل، وأنا أسمع من يناديني، وأحاول النهوض فلا أستطيع. كنت كالمشلولة، وثقل رهيب يكبس على صدري. لا أستغرب أن يكون قد دسّ لي بنجاً في كأس النعناع، الذي أشربه في المساء. لا أستغرب أن يفعل أيّ شيء. إنّه رجل فاسد.. فاسد ومنتن. هل تبكين؟

غادة : لا أدري ماذا أفعل. إنّهما أقوى منّا. لم يتحمّلا أن نحلم، أو

أن تظهر لمعة فرح في حياتنا. والآن.. لم يبق لدينا شيء.. سنعود إلى الانتظار.. انتظار قلق موجع كالبرداء والحمّى لا.. لم أعد أحتمل.

ماري : معك حقّ.. منذ رحيله أشعر أنّي كالضّائعة.. ضاق المكان، وصار كالسّجن. نعم..هذا هو حالنا. إنّنا محصورتان في حبس.

غادة : وليس أمامنا إلاّ أن نبلع قهرنا، نتغذّى به..

ماري : لو بلعتِ قهرك، فستنتهين عجوزاً بائسة وممرورة مثلي. لا... هذه المرّة يجب ألاّ نبلع قهرنا.

غادة : ماذا نستطيع أن نفعل؟

ماري : هل تحضّرين القشّة للغداء؟

غادة : لا.. يشتهي حضرته أن يتناول القشّة على العشاء. واصطحب معه الصغير كيلا يلهيني.

ماري : وفارس يحبّ القشّة أيضاً. ما أوخم الرّجال! إنّهم أمعاء تأكل أمعاء. سأغيب لحظة، وأعود لأساعدك. **(وهي تنهض)** انظري ماذا وجدت تحت مخدّته. **(تخرج من ثيابه كتاباً، وتناوله لغادة)** لاشكّ أنّه تركه لك.

غادة : **(وهي تنظر في الكتاب)** نعم.. هذا هو الشّعر الذي لم يكن يملّ من قراءته. شعر قرأه لي اثنان.. أخي وهو.. يا الله.. كم هما متشابهان!

(تختفي ماري في غرفتها، وتقلّب غادة في الكتاب تقرأ بصوت خافت).

غادة : وتغرقان في ضباب من أسىً شفيف • كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء • دفء الشّتاء فيه وارتعاشة الخريف • والموت والميلاد والظلام والضياء • فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء • ونشوة وحشيّة تعانق السماء..

كان صوته يختلج عذباً وهو يقرأ هذه الأبيات. كان حلماً جميلاً وكنت أنتظره.. يا ربّ.. لماذا تكون الأحلام الجميلة سريعة الزّوال؟! أكان حقاً هنا.. أم أنّ امرأتين بائستين كانتا تحلمان؟

(تخرج ماري من الغرفة، وهي تحمل علبة ملفوفة بأطواق عدّة من القماش).

ماري : هل حضّرت التبلة؟

غادة : نعم.. إنّها جاهزة.

ماري : إذن خذي.. **(تناولها العلبة).**

غادة : ما هذا؟

ماري : إني أحتفظ بها منذ عشرين سنة أو أكثر.. إنّي امرأة خائرة. ضيّعت عمري في التردّد والشّفقة. كم مرّة فتحت هذه العلبة ثمّ أغلقتها! وفي النهاية نفضتُ يدي، واستسلمت. قلت يا ماري هذا نصيبك.. سأحكي لك.. نعم حان الوقت كي أحكي لك.. حين تقدّم فارس للزواج منّي، فرح أهلي ولم يدقّق أبي في السّؤال عنه. لم أكن جميلة كأختي. كنت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمري دون أن يتقدّم أحد، ويطلب يدي.. كان أبي وأمّي عجوزين كبيرين، وكانا يخافان أن أظلّ وحيدة في هذه الدّنيا بلا زواج أو عائلة، خاصّة وأنّ أختي هاجرت مع زوجها، ولم يرِدنا الكثير من أخبارها.. المهم قَبِلَ أهلي واشترى أبي لي هذا البيت وماكينة خياطة كي يجنّبنا الحاجة، وتزوّجت فارس. واكتشفت بعد الزواج أنّه أعمانا بالأكاذيب.. كان بلا صنعة، ولايصبر على عمل، وفوق هذا.. كان مقامراً، وكانت يده طويلة، وكان لايعاشر إلاّ الأوغاد، وكان يدفعني إلى حياة كلّها وحل وأقذار وأكاذيب..

بعد ليلتنا الأولى بأيّام، بدأت أشعر حرقة في البول، ويلطخ سروالي سائل عفنيّ اللون.. آه يابنيّتي.. إنّي أشعر بالخجل، ولكن أريد أن تعرفي كيف عشت. وكيف امتلأت نفسي بالقرف من جسدي ووجودي. لم أكن أجرؤ على الكلام ولم أعرف ماذا أفعل!. في البداية حسبت أنَّ هذا هو الزواج، وأنَّ هذا ما تفرزه العلاقة بالرّجال. وكان هو يفعل ذلك الشيء المقرّز ثمّ يدير ظهره، وينام غير عابئ بشيء. وكانت الحرقة تزيد، والسّوائل العفنية تتكاثر. وبدأت أشمّ رائحتي.. وهاتي يا ماري الصابون والماء، وتشطّفي كلّ يوم مرّات ومرّات. وماكنت أستفيد شيئاً، فالسّوائل لاتنقطع، وبدأت الأوجاع تزداد. ملأني شعور بالنّجاسة، وبأنَّ جسدي حلّت عليه اللّعنة. وكانت أمّي مريضة، وخجلت أن أسألها عن هذا الطارئ الذي ألمّ بي. وعلى كلّ لم يمهلها المرض طويلاً، ورحلت وهي تظنّ أنّي راضية ومستورة، ولم يعش أبي طويلاً بعدها. كان الحزن يتلو الحزن وأنا أهترئ في وسطي، ويزيد نفوري من نجاستي وبدني. مرّةً.. استجمعت شجاعتي، وسألت فارس عن هذه العوارض، فاستخفّ بي، وقال وهو يمجّ سيجارة.. إنّ وسخ النّساء كثير، والمرأة نجاسة مكشوفة.. آه كم خجلت يومها، وكم كرهت نفسي! بعد سنتين من الزواج أو أكثر، بدت عليّ أعراض الحمل. وفي غمرة الفرح نسيت أوجاعي ولم أعد أبالي بالبقع على سروالي. عانيت كثيراً أثناء الحمل، ولكن هذه المعاناة لم تكن تنغّص فرحي إلاّ قليلاً. وفي الشّهر السّادس.. بعد أن اكتمل في بطني، وتميّزت صورته بدأت أنزف، وأفلت ابني منّي..

كان كامل الخلقة حين طرحته.. بصق فارس وهو يلفه بقطعة قماش ثمّ ذهب ورماه، وحتّى اليوم لم أدرِ هل رماه في الزّبالة أم في النّهر! وقالت لي الداية التي اعتنت بي.. إنّ ظهرك رخو، فتجرأت وأخبرتها عن أوجاعي، والسوائل التي تنزل منّي، فأكدت لي أنّ هذه علامة الرّخاوة. وبعد أن فقدت ولدي يا غادة.. زادت آلامي حدّة، وصار وضعي لايطاق. وكنت وحيدة.. لا أعرف ماذا أفعل.. ثمّ أجرنا الغرفة التي تسكنينها الآن لزوجين شابّين. وفي البداية.. لم أطق الصبيّة. كنت أنفر منها كما ينفر المرء من فضيحةٍ أو من عار. ما أكثر غرائب البشر! تصوّري.. كانت تصدر في الليل أصواتاً تملأ الدار، وتجعلني أنتفض خجلاً في فراشي.

غادة : وما هذه الأصوات؟

ماري : ماذا أقول لك!. شهيق ونخر، وصيحات، وكلمات داعرة. أوّل ليلة سمعتها.. لم يغمض لي جفن. بقيت حتّى الصّباح أغالب شعوراً بالغثيان. وبعد أيّام، كنت أخجل من النّظر إليها، وأتقزّز من مبادلتها الكلام. سألتها هل هي مريضة! وما سر تلك الأصوات التي تملأ الدّار في اللّيل؟ فاستغرقت في الضّحك حتّى كادت أن تنقلب على قفاها، وقالت.. ولَو يا جارة.. كيف يخفى عليك هذا الأمر؟ هذه هي.. اللّذة الّتي ما بعدها لذّة. قولي لي يا غادة.. هل عرفت هذه اللذة؟

غادة : (خجلة) ما هذا السّؤال يا خالة!

ماري : أتخجلين منّي؟

غادة : لا أدري.. ربّما عرفتها بيني وبين نفسي، أو في المنام. وأنت؟

ماري : أتسألينني! لاشيء إلاّ التقزّز والنفور. ألم يكلّم الرّبّ موسى قائلاً.. كلّ فراش يضطجع عليه الّذي له سيل يكون نجساً، وكلّ ما يركب عليه ذو السّيل يكون نجساً، وإناء الخزف

الذي يمسّه ذو السّيل بكسر. من يبدأ زواجه بالسّيل، لن يخبر إلاّ النّجاسة والقرف..

غادة : وماذا كانت علّتك يا خالة؟

ماري : عندما ساء حالي، أخبرت تلك الجارة رغم نفوري منها عن أعراضي. فقالت.. ولكن يا جارة.. هذا مرض، وينبغي أن تزوري طبيباً. وصرخت.. أعوذ بالله.. وكيف أدع رجلاً يكشف عورتي؟ فضحكت وقالت.. أنا أذهب معك. وظلّت تلحُّ عليّ، وتخوّفني من العواقب، حتّى وافقتها وذهبنا إلى الطّبيب. ماذا أقول لك يا غادة! والله تمنّيت لو أنّ أمّي لم تلدني. قال لي الطبيب، وكان غاضباً.. أما كان بوسعك أن تبكّري قليلاً، إنّك مصابة بسيلان مزمن. وقد استفحل، وتفاقم بعد الإجهاض. وحين سألته.. ومن أين جاء هذا المرض! قال لي.. هل عاشرت رجلاً غير زوجك، فغضبت، وأردت أن أشتمه.. فهدّأ خاطري وقال لي.. إذن جاءك من زوجك.

غادة : ومن أين يأتي هذا المرض؟

ماري : من البغايا.. لاشكّ أنّه التقطه من إحدى البغايا. والله وحده يعلم منذ متى.

غادة : أكان مصاباً حين تزوّجك؟

ماري : نعم.. ونقله لي في ليلة دخلتي.. تصوّري ماذا كانت هديّة عرسي!

غادة : وهل عالجك الطبيب؟

ماري : أصرّ الطبيب على معاينة زوجي.. وقال لابدّ من معالجتنا نحن الاثنين.. عدتُ إلى البيت، وأخبرت فارس، ففار دمه وغضب، وحلف لوأنّ في ديننا طلاقاً لطلّقني فوراً.. قال.. أنا رجل كامل، وليس فيّ أي عيب. حاولت وتوسّلت ولكنّه

ظلّ على عناده، فعدت إلى الطبيب، ورجوته أن يحاول مداواتي دون زوجي.. ووصف لي يا غادة خمسين حقنة، واحدة في الصّباح وواحدة في المساء وتحجّرت عجيزتي وامتلأت بالدمامل، ولم أشف. لأنّ أصل الدّاء فيه، ولاتنقطع العدوى. أفّ.. تضيق روحي كلّما تذكّرت ما قاسيته تلك الأيام. وليته كان ينفع لشيء. منذ تزوّجته، لم يلزق في مهنة أو عمل أكثر من شهر.. يبدّد وفري ثمّ يعود إلى البيت. يتباكى ساعة من الزمان، ثمّ ينسى كلّ شيء، ويعود للاختيال كأنّه ديك الحارة.. وأنا أشقى وأشقى كي أنفق على البيت وعليه.. وعندما طاوعني، وقبل كارهاً أن يزور الطبيب معي، اكتشفنا أنّ المرض أعقمه تماماً. وصار حظّي في الخلفة ضئيلاً. يومها، اشتريت هذه العلبة، وكنت مصمّمة على أن أختم هذا الشقاء، وأن أنظّف هذا البيت من نجاسته ودناءته وقلّة همّته. ولم أستطع.. مرّت أيام، وأنا أحاول.. لم أستطع. كنت أشعر أنّه بائس ووحيد وهزيل الرّوح، فاستسلمت. أبعدت فراشي عن فراشه.. ورحت أنتظر ملهوفة ومحروقة ابناً يأتي، ويقول.. أمّي. آه كم شقيتِ يا أمي!

غادة : أتلك كانت حياتك يا خالة؟

ماري : نعم.. تلك كانت حياتي. وحين لاح فرح وتحقّق حلم، فارت فيه الغيرة والنذالة من فرحي وحلمي. وأنت أيضاً.. فقدت الفرح والحلم. تصوّري.. لم يتحمّلا أن نحلم. لم يتحمّلا أن نعيش فرحاً صغيراً. إنّهما يشوّهان كلّ ما هو جميل، ويجعلان الحياة وقتاً لا يطاق. أنا أعرف ما هو خلاصي. جهّزت ثوبي وتابوتي ورخامة قبري. أمّا أنت فهل

تريدين أن تنتهي مثلي؟

غادة : **(وهي تبكي)** آه يا خالة.. إنّك تضاعفين غمّي ويأسي.

ماري : ألا تريدين أن تتخلّصي من الغمّ واليأس؟

غادة : ليتني أعرف السّبيل.

ماري : ألا تريدين أن تفرحي، وتحلمي، وتجدي ما يصبو إليه قلبك وجسدك؟

غادة : لاتزيديني حسرة على حسرة.

ماري : دعي التحسّر الآن. لن يكون هناك فرح أو حلم، مادامًا يخيّمان علينا كظلّ العفونة. خذي العلبة وافتحيها..

غادة : **(تتاول العلبة وتفتحها)** ما هذا؟

ماري : ليس ضرورياً أن تعرفي ما هو..

غادة : **(تدوّر عيناها)** أتعنين؟

ماري : ما لم أستطع أن أفعله في أوانه، يجب أن تستطيعي فعله في أوانه. لا.. ليس وحدك.. سنفعله معاً.. ولكنّني أحتاج إلى عزمك وإرادتك.. انظري في داخلك، وتأمّلي كم أنت مقهورة.. ألست مقهورة؟

غادة : نعم.. إنّي مقهورة.. ولكن.

ماري : ألا تريدين أن تخرجي من هذا السّجن إلى فضاءٍ حافلٍ بالوعود؟ ألا يحقّ لنا أن نزيح عن أرواحنا هذا الشّقاء! ألا يحق لنا أن نحلم؟

ادة : نعم.. ينبغي أن يحقّ لنا.. قولي ماذا أفعل؟

ـرس : سنفعل معاً.. هاتي التبلة..

(تنهض غادة، وتذهب إلى المطبخ كي تحضر التبلة).

ماري : سل عمري يوماً يوماً، وأنا أتردّد. وحين جاءتني فرحة صغيرة، بدّدها وأطفأها.. اغفر لي يا ربّ.. اغفري لي أيتها العذراء.. ألم أقض حياتي كلّها، وأنا أدير له الخدّ الأيمن!.

لكن هذه المرّة.. أشعر بالغضب والغبن.. حرمني الولد في صباي وفي شيخوختي.. لا.. لا أستطيع أن أدير له الخدّ الأيمن.. إنّي أشفق على نفسي..وأشفق على هذه الصبيّة التي ستنطفئ وهي تنتظر.. **(تأتي غادة حاملة طبق التبلة).**

غادة : ها هي التبلة.

ماري : اقسميها نصفين.. هل أنت متردّدة؟

غادة : **(وهي تقسم التبلة في صحنين)** لا.. لست متردّدة.

ماري : نعم.. يجب ألاّ نتردّد.. لم يحتملا أن نحلم، وأن تكون لنا فرحة صغيرة.. أنا ماري التي رتبت موتها وكأنها ترتب فرحها، أقول لك.. لن تكون الحياة ممكنة ولن يكون الموت راحةً وسلاماً ماداما معنا..

(تعجن ماري نصف التبلة بالزرنيخ)

ماري : أي قطعة من القشّة يفضلها زوجك؟

غادة : **(تتاول قطعة المعدة)** هذه هي التي تسميها قبّعة القاضي.

ماري : أمّا فارسي.. فيحبّ السجقات الغليظة..

(يبدآن في حشو القطع بالتبلة).

ماري : ما أوخم هذه الأكلة! الآن أتذكّر شهيق تلك الجارة.. كانت طيّبة وصاحبة لهفة. لكن لم أستطع التغلّب على تقزّزي طوال المدّة التي سكنت فيها هذه الغرفة.. آه لو سمعت تلك الأصوات!

غادة : ربّما كانت سعيدة..

ماري : نعم.. لم تكن تخفي سعادتها، وكانت تقول.. تلك هي اللّذة التي ما بعدها لذّة..

غادة : ربّما كان صحيحاً ما تقوله!

ماري : أتظنّين؟ كيف تولد اللّذّة مع الدّنس والفجور وأفعال البهائم؟

غادة : آه يا خالة.. نحن امرأتان شقيّتان، لا تعرفان عن السّعادة

واللّذّة إلاّ التّخمينات والأوهام..

ماري : هذا حقّ يا غادة.. ما نحن في النّهاية إلاّ امرأتان شقيّتان..

(يستمرّ المشهد فترة وهما تحشوان الأمعاء، ثمّ تتلاشى الإضاءة ببطء).

المشهد الثامن

(في أرض الدّيار. وُضعت طاولة يجلس حولها كاظم وفارس. على الطاولة مازات وعرق)

كاظم : هذه ليلة ملوكيّة بعد موجة البرد، عاد الجوّ خريفيّاً ولطيفاً. هل أنت بردان؟

فارس : وهل يجتمع البرد مع هذه النّار المباركة؟ كاسك!

كاظم : أي والله.. كاسك يا أبا الفوارس.. الآن احلوّ المكان، وصار المرء يشعر أنّه يسكن في بيت. لا أخفي عليك.. بعد حادثة هذا المحتال فكّرت بالبحث عن بيت آخر. ولكنّي أشعر اليوم أنّي أحبّ هذا البيت، وأحبّ هذه الجيرة.

فارس : البيت بيتك يا حضرة المساعد.. وأعدك ألاّ تتكرّر تلك الغلطة.

كاظم : يا سيّدي.. لماذا لا نسدّ باب الغلط من أصله، ونرتاح؟ أفكّر أن أستأجر الغرفة العلويّة.

فارس : سيكون ذلك عظيماً. ولاشكّ أنّ ماري سترحّب بالفكرة.

كاظم : كن رجلاً يا فارس.

فارس : لاتجرؤ ماري على كسر كلمتي. والغرفة على حسابك منذ هذه اللّحظة.

كاظم : أي هذا هو الكلام..

(يدخل ثائر حاملاً صحناً فيه بصل مقطّع).

كاظم : هات يا ثائر.. البصل زينة الطاولة. تعال يا بني.. **(يحمل كاظم ابنه، ويضعه في حضنه، يقرّب الكأس من فمه)** اشرب قرقة..

ثائر : **(مشيحاً بوجهه)** لا أحبّه..

كاظم : ألا تريد أن تصبح رجلاً؟ الرّجل تفطمه أمه على حليب السّباع.

ثائر : آخ.. حرقني..

كاظم : طيّب.. طيّب.. خذ.. ألا تحبّ اللّوز والبندق؟

فارس : ماشاء الله.. إنّه أكبر من سنّه وجواباته على رأس لسانه!

الأمّ : **(من المطبخ)** ثائر.. تعال يا ثائر..

(ينزل عن حضن أبيه، ويذهب إلى أمّه).

كاظم : قل لأمّك أن تعجّل بالقشّة.. اشرب يا رجل..

فارس : سأشرب نخب مقامك الجديد.

كاظم : أتيت بها في وقتها.. نحتاج همّتك يا أبا الفوارس.

فارس : أنا جاهز.. ولكن بماذا أستطيع أن أخدم؟

كاظم : أنت هنا ابن الحي، وتعرف جميع أهله.. ويمكن أن تطّلع بسهولة على أفكار الناس وأحاديثهم. إنّ الثورة تحتاج إلى حماية يا أبا الفوارس. وفي البلد طابور خامس من الرجعية، وعملاء الناصرية، ومأجوري الشيوعيّة. وهؤلاء كلّهم جراثيم إذا لم نفتك بهم، فتكوا بالثّورة. الثّورة قويّة، ولكن اليقظة واجبة. والشّعب الطيّب هو الذي ينبغي أن يحمي ثورته، ويفضح الّذين يعادونها أو يتآمرون عليها. أنا أعرفك مواطناً صالحاً، وأعرف أنّك من مؤيّدي الثّورة.

فارس : طبعاً.. أنا أؤيّدكم. في حياتي كلّها، لم أعارض الدولة ولم أكن من أهل المشاكل.

كاظم : طيّب.. في البداية لا أريد إلاّ أن تتشمّم أخبار النّاس في الحيّ

وتنقل لي أحاديثهم. ينبغي أن تزور النّاس في بيوتهم، وأن تفتح معهم أحاديث، وتتعلّم كيف تجرجرهم إلى الكلام. ولا تنسَ المقهى.. المقهى مكان عليك أن تتردّد عليه يوميّاً، وأن تصغي إلى مايقال خلسة، ودون أن تثير انتباه أحد.

فارس : آه يا حضرة المساعد.. أنا أخدمك بعيوني، ولكن كما تعرف اليد قصيرة. المقهى يحتاج إلى نفقات.. ومن تزوره في بيته يجب أن تستقبله في بيتك، وتحضر له الضيافة.

كاظم : فهمت.. فهمت.. إنّي لا أطلب منك خدمة بالمجان. سنصرف لك نفقة. وربّما استطعت أن أوفر لك معاشاً شهريّاً.

فارس : **(مذهولاً)** أنا.. يكون لي معاش شهري؟

كاظم : ولِمَ لا؟ إنّ الثورة كريمة مع من يخدمها، ويدافع عنها.

فارس : أتعني أنّي سأكون كموظّفي الدّولة، ولي راتب أقبضه كلّ شهر؟

كاظم : نعم.. إذا أبديت همّة، وقدّمت لنا خدمات طيّبة.. فإني أعدك أن تغدوَ موظفاً، وأن تخشخش الفلوس في جيبك آخر كلّ شهر..

فارس : **(مبهوراً)** وحياة شواربك.. هذه تحتاج إلى فتلة.. **(ينهض عن كرسيه، ويتهيأ للرّقص)** أنا الّذي أمضيت عمري بطّالاً ويسمّيني النّاس رمّة لا تصلح لشيء، سأدخل الحكومة وأصير موظفاً! إنّ عقلي يكاد يطير.. حقّاً.. يحتاج الأمر إلى فتلة..

(يصفّق بيديه، ويبدأ بالتمايل راقصاً).

كاظم : اتّفقنا؟

فارس : بارك الله فيك. طبعاً.. اتّفقنا. منذ الآن اعتبرني خاتماً في إصبعك.

(يصفق كاظم بحمية وبهجة.. بينما يفتل فارس حول الطاولة راقصاً. تدخل ماري ووراءها ثائر حاملة صينيّة، رُصّت فيها قطع القشّة، وتضعها على الطاولة).

ماري : يا عترتي.. هل سكرت.. أم جننت!

فارس : عندما أحكي لك يا ماري، ستغيّرين لهجتك، وربّما تفتّلتِ معي..

ماري : لا كان ذلك اليوم.. احترم شيبتك، وعد إلى كرسيّك.

ثائر : **(وهو يضحك)** ماما.. ماما.. تعي تفرّجي.. عمّو فارس سكران..

ماري : خزيت العين.. فرجة لا تُفوَّت.. أي والله سكران. اجلس يا رجل وكفاك بهدلة.

كاظم : لاتزيديها يا جارة، نحن أهل، وفارس اليوم فرحان، فدعيه يأخذ راحته.

فارس : **(وهو يجلس)** عندما أحكي لك، ستعرفين أنَّ الأمر يستحقّ الرّقص.

ماري : طيّب.. طيّب.. اجلس مثل الخلق، ولا تجعل نفسك مسخرة.

(تتركهما ماري وتخرج. يبقى الصغير يحاول تقليد فارس، ويضحك).

كاظم : **(بصوت خافت)** ما هذا يا فارس! هذا الشّغل لا ينفع معه اللسان الفالت..

فارس : هل أخطأت؟

كاظم : نعم.. أخطأت.. ما اتفقنا عليه يجب أن يظلّ سرّاً، لا يعرفه أحد في العالم.

فارس : ولا ماري.

كاظم : ولا أي مخلوق.. إذا انكشفتَ أو شاع أمرك، فلن تستطيع

أن تفيدنا في شيء. ينبغي أن تظلّ هذا الرّجل الدرويش الذي يسمّيه الجميع رمّة لا تصلح لشيء. حتّى لا يتحاشوك، أو يحاذروا من الكلام في حضرتك. لم أعرض عليك هذا الشغل إلاّ بعد تدبّر. فأنت.. لا مؤاخذة لا يعبّرك أحد. ولن يخطر ببال إنسان أنّك مخبر.. وأنّ لك صلة بالأمن. ينبغي أن تكون كتوماً، وأن تحافظ على مظهر الفقر والكسل وقلّة الهمّة. على كلّ سأدرّبك على العمل شيئاً فشيئاً. ولكن إيّاك أن تفوه بكلمة واحدة عمّا دار بيننا.

فارس : حاضر.. قلت لك.. اعتبرني خاتماً في إصبعك..

كاظم : عظيم.. كاسك..

(يرفعان كأسيهما، وبعد الدقّ يرشف كلّ منهما جرعةً كبيرةً من كأسه).

كاظم : أي.. يا أبا الفوارس. ماذا تحبّ في القّشة؟

فارس : في الحقيقة.. أنا أحبّ السجقات الغليظة..

كاظم : أمّا أنا.. فأحبّ هذه المدوّرة التي نسميها قبعة القاضي.. اسمع.. ليس بيننا تكليف.. أنا عادة لا آكل إلاّ بعد أن أعبّئ مخّي، كلّ واحد وله مزاجه، فلا تنتظرني ومدّ يدك. أنت لاتحتاج إلى دعوة.

فارس : والله إنّي مثلك. أفضّل الأكل على مخّ عامر. وأنا كما قلت لا أحتاج إلى دعوة **(موجّهاً الكلام إلى ثائر)** وطرزان الصغير.. ماذا يفضّل. قبّة القاضي أم السجقات؟

ثائر : **(مقترباً من الطاولة)** أنا أحبّ هذه.. **(ويشير إلى السجقات)**.

فارس : عظيم.. طرزان يحبّ السجقات **(يتناول قطعة مصران ويمدّها إلى ثائر)** خذ.. كلها بالعافية والهنا.

ثائر : لا. منعتني أمي أن آكل عندكم..

كاظم : ولماذا تمنعك! هذه امرأة خسيفة العقل، وإذا أطعتها يا ثائر لن

تصبح رجلاً.. أنت رجل ويجب أن تأكل مع الرّجال..
خذها من يد عمّك فارس.

ثائر : أمّي ترعل..

كاظم : دعني من أمّك وخذها..

(يأخذها ثائر، ويبدأ في التهامها).

ثائر : ماما.. أنا أكلت مع بابا..

(يتناول كاظم قطعة أخرى، ويمدّها إلى ثائر).

كاظم : أي كُل.. حبيبي.. كُل..

ثائر : ماما.. بطني..

(تأتي غادة، راكضة وماري تهرول إثرها).

غادة : ماذا فعلت؟

ثائر : جبرني بابا..

غادة : **(بصوت مفجوع)** لا.. لا..

كاظم : ماذا دهاك؟

ثائر : **(يصرخ كمن يلتهب جوفه)** بطني.. بطني.. **(يقع على الأرض.. ويبدأ في التقيّؤ، بينما يتحوّل لونه أزرق مخضرّاً.. بصوت واهن، ومحشرج)**.. ماما..

كاظم : ماذا هناك!.. أفهمونا.. ما القصّة؟

(تلفلف غادة الطّفل الذي يتمرّغ في قيئه، ويختلج اختلاجات مختنقة، بينما ترتعش ساقا ماري.. وتسقط على الأرض)..

غادة : **(مولولة)** سمّمت ابني.. أنا سمّمت ابني.. **(تنظر إلى كاظم بحقد)** وأنت.. لماذا لم تأكل! كُل.. قتلت لي صغيري ولم تأكل.. انظر إليّ.. أنا سآكل. وهل بقي لي إلاّ أن آكل؟ **(تمد يدها إلى الصّحن، وتحاول أن تغرف ملء يدها، يمسك كاظم معصمها، ويرمي الصحن على الأرض).**

ثائر : **(يحشرج متلاشياً)** ماما..

غادة : يا عين ماما.. **(تشدّ ذراعيها على الولد، وتدور في أرض**

الغرفة دوراناً هيستيرياً) تعالي يا ماري، وانظري. لامجالٍ للحلم.. لا مجال للتمنّي.. لاشيء إلاّ الموت.. لا شيء إلاّ الظلام والموت.. أين أنت يا أخي! أين الشّعر في هذه الدّنيا!. أين غابة النّخيل والشرفة التي ينأى عنها القمر! لا الحلم ممكن، ولا التمنّي ممكن. لاشيء إلاّ الظلام والموت.

(يهرع فارس نحو باب الدّار. يلاحظه كاظم الّذي بدأ يتخلص من ذهوله، ويستعيد تماسكه).

كاظم : **(بحدّة)** أين تذهب؟

فارس : سأستدعي طبيباً..

كاظم : لا نريد طبيباً.. **(يمسك امرأته ، ويدفعها نحو غرفتهما)** وأنت كفى ولولة.. وادخلي إلى الغرفة.

غادة : **(تتّجه نحو الغرفة كالمنوّمة)** وما الفائدة! سيظلّ لهباً لاصقاً في الصّدر إلى الممات. لن أفارقه، ولن يفارقني.. سينام معنا. وسيفصل بيننا كجدار من الكراهية والدموع..

كاظم : **(وهو يدفعها)** قلت.. ادخلي إلى الغرفة..

غادة : وما الفائدة! ستحرقني ناره أينما كنت..

(تختفي في الغرفة).

كاظم : والآن.. أصغيا إليّ جيداً. لم يحدث شيء. كان قضاءً وقدراً. لا أريد لغواً، ولا أريد لتّاً وعجناً. ولو فاحت رائحة أو فضيحة، فإنكما ستدفعان الثّمن غالياً. هل بلغك كلامي يا فارس؟

فارس : نعم يا حضرة المساعد.. وأعدك ألاّ تفلت من فمي كلمة.

كاظم : إذن.. ادخلا غرفتكما. وانسيا ما حدث...

(يساعد فارس ماري التي تشهق بالبكاء على النهوض.. ويمضيان بخطوات متعثّرة إلى غرفتهما..).

كاظم : تذكّرا.. لا أريد همساً ولا وشوشة..

فارس : مفهوم يا حضرة المساعد.. مفهوم..

(يغيب فارس وماري في غرفتهما.. يظلّ كاظم وحده. يتناول كأسه المليء ويرشفه دفعة واحدة).

غادة : **(تتاهى ولولتها من الغرفة)** يا عين ماما.. سأحفر صدري وأمدّدك فيه. قتلكِ ولم يأكل. لا الحلم ممكن. ولا التّمني ممكن.. لاشيء إلاّ الظلام والموت..

(يتّجه كاظم نحو الغرفة.. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد التّاسع

(في غرفة ماري، ماري في فراشها. وفارس متمدّد على الديوانة)

ماري : **(بصوت هامس وخاشع)** أبانا الذي في السّماوات.

فارس : تأخرا في العودة من البلد.

ماري : ليتقدس اسمك.. ليأتِ ملكوتك.

فارس : ماري.. أحقاً كنت تريدين أن أموت!

ماري : كان ينبغي أن نفترق منذ زمن بعيد. أن يموت أحدنا أو كلانا.

فارس : يا الله.. كم غيّرك ذلك الولد المحتال!

ماري : لا تذكره على لسانك..

(فترة صمت)

فارس : أيمكن أن تتركيني بلا تابوت؟

مارس : اسكت الآن.. ودعني أكمل صلاتي..

فارس : بعد هذه العشرة، يحقّ لي أن أحصل على تابوت لطيف كالتّابوت الذي أوصيتِ عليه، ودفعتِ ثمنه.

(فترة صمت).

فارس : أنا لا أفهم كيف طاوعك قلبك على شراء تابوت ورخامة لك وحدك ماري.. أنا أيضاً أريد أن أرتّب موتي..

ماري : اسكت.. ودعني أنم..

فارس : لا أستطيع أن أنام.. تصوّري أن أموت اللّيلة، وليس لدي تابوت. من حقّي عليك أن تشتري لي تابوتاً.

ماري : نم الآن.. وغداً يفرجها الله..

فارس : هل وافقت؟

ماري : (بحنق مقهور) وماذا أفعل؟ سأحمل عبأك في الموت، كما حملت عبأك في الحياة.

فارس : هذه هي ماري التي قلبها من ذهب.. ماري العذبة واللطيفة.. نعم هكذا هي ماري التي أعرفها وأريدها.. كدت أعتقد أنّي ضيّعتك، الآن سأنام مرتاحاً. حقّاً.. إنّي مرتاح..

ماري : أبانا الذي في السّماوات.. ليتقدّس اسمك..

فارس : خبّأت عنك سرّاً.. أتعلمين!.. كان ممكناً أن أغدو موظّفاً في الدولة والمسألة هيّنة. لايطلبون منّي إلاّ مراقبة أهل الحيّ، ومعرفة ماتحت ألسنتهم.

ماري : هذا هو العمل الذي يليق بك؟ أن تتعيّش من التلصّص، وأذى النّاس.. يا الله.. ما أوخم روحك يا فارس!.

فارس : مقبولة منك يا ماري. على كلّ، فرّطت قبل أن تبدأ، وبعد وعدِك لم أعد أبالي. لايهمني أيّ شيء إلاّ رضاك يا ماري.. هل أنت صافية وراضية؟

ماري : نم.. ولاتقاطع صلاتي..

فارس : قولي.. إنّك راضية عنّي..

ماري : (صائحة بغضب ونفاد صبر) إنّي راضية.

فارس : سأنام مرتاحاً.. حقّاً إنّي مرتاح..

ماري : (تتمتم بنرفزة) أبانا الذي في السّموات.. ليتقدّس.. أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك.. ليأت ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض.. أعطنا يا ربّ

خبزنا الجوهري كفاف يومنا.. ولاتدخلنا في التّجارب..
ولاتدخلنا في التجارب..
(يتلاشى الصّوت والضّوء ببطء).

ستار

١٩٩٤

سعد الله ونوس

ولد عام 1941 في قرية (حصين البحر) محافظة طرطوس، سوريا درس حتى الثانوية في قريته كان أول كتاب أقتناه هو "دمعة وابتسامة" لجبران وكان عمره 12 سنة، ثم نمت مجموعة كتبه وتنوعت : طه حسين ، العقاد، ميخائيل نعيمة، نجيب محفوظ، يوسف السباعي، إحسان عبد القدوس ... الخ

1959حصل على الثانوية العامة، وسافر إلى القاهرة في منحة دراسية، ليدرس الصحافة في كلية الآداب، جامعة القاهرة.

1961انفصال الوحدة بين سوريا ومصر (هزة شخصية كبيرة) فكتب مسرحية طويلة عنوانها "الحياة أبداً."

1962كتب مقالاًفي مجلة (الآداب) حول الوحدة والانفصال، ومقالات في جريدة (النصر) الدمشقية.

1963الحصول على الليسانس، دراسة نقدية طويلة عن رواية (السأم).

ألقى في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق سلسلة محاضرات تحت عنوان (في البحث عن مسرح عربي).

بدأ الكتابة في مجلة الآداب التي نشر فيها مقالا عن الانفصال ودراسة عن رواية السأم لالبرتو مورافيا، ثم رجع إلى دمشق وعمل في وزارة الثقافة عمل محرراً للصفحات الثقافية في صحيفتي السفير اللبنانية والثورة السورية. كما عمل مديراً للهيئة العامة للمسرح والموسيقى في سوريا. في أواخر الستينات، سافر إلى باريس ليدرس فن المسرح. وبعد أن عاد تسلم تنظيم مهرجان المسرح الأول في دمشق ثم عين مديراً للمسرح التجريبي في مسرح خليل القباني مسرحياته كانت تتناول دوما نقدا سياسيا اجتماعيا للواقع العربي بعد صدمة المثقفين إثر هزيمة1967، في أواخر السبعينات، ساهم ونوس في إنشاء المعهد العالي للفنون المسرحية ب دمشق، وعمل مدرساً فيه. كما أصدر مجلة حياة المسرح، وعمل رئيساً لتحريرها.

في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت عام 1982، غاب ونوس عن الواجهة، وتوقف عن الكتابة لعقد من الزمن. عاد إلى الكتابة في أوائل التسعينات. كان سعد الله ونوس أول مسرحي عربي يقوم بكتابة الرسالة الدولية في اليوم العالمي للمسرح 27 آذار 1996 تم تكريم سعد الله ونوس في أكثر من مهرجان أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي ومهرجان قرطاج وتسلم جائزة سلطان العويس الثقافية عن المسرح في الدورة الأولى للجائزة في 15 أيار (مايو) 1997، توفي ونوس بعد صراع طويل استمر خمس سنوات مع مرض السرطان.

وهكذا كان سعد الله ونوس مقاتلاً بالكلمة وحالماً بالحرية حتى آخر لحظة في حياته, فقد ذكرت زوجته فايزة شاويش انه لم يترك الكتاب والورق والاقلام حتى في ايامه الأخيرة بالمستشفى وهو

يودع دنيانا. ومن الأقوال الشـــهيرة لـه والتي القاها في مؤتمر المســـرح بباريس قبيل وفاته (نحن محكومون بالأمل ولا يمكن ان يكون هذا نـهاية التاريخ).

منح ســـعد الله ونوس الجائزة على مجموع أعماله المســـرحية، مع التنويه بمســـرحياته الأربع التالية: حفلـة ســـمر من أجل 5 حزيران، ســـهرة مع أبي خليل القباني، مغامرة رأس المملوك جابر، الملك هو الملك.

وذلك لما تحققه هذه الأعمال من تأصـيل لصـيغة مســرح عربي يفيد أولاً من تراث الأمة العربية تاريخاً، أو أسـطورة، أو حكاية، ويفيد ثانياً من التراث المسرحي الإنسـاني، قديمه وحديثه موظفاً بشــكل خاص أســاليب المســرح الملحمي، والمســرح داخل المســرح، في قالب يتحد فيه الإيقاع الدرامي ضـــمن هدف خلق مســـرح عربي جديد. ويتعامل مع الواقع العربي برؤية واضـــحة من الناحيتين النظرية والعملية، واعية لدور المســـرح في تعميق الإحســـاس الجماعي بالمصـــير التاريخي.

كاتب مســـرحي ســـوري ولد في حصـــين البحر بمحافظة طرطوس عام 1941 ، واشـــتهر منذ الستينات كواحد من أبرز وجوه الحركة الثقافية والمسرحية في العالم العربي.

درس الصحافة في القاهرة وأنهى دراسته في عام 1963 . وفي تلك الفترة بدأ اهتمامه بالمسرح وكتب مسرحيات قصيرة صدرت عن وزارة الثقافة في سوريا عام 1965 ، في كتاب مستقل تحت عنوان " حكايا جوقة التماثيل " ثم جمعت مع غيرها في كتابين صـــدرا عن الآداب في لبنان عام 1978 . ومن أهم هذه المســـرحيات القصـــيرة " ميدوزا تحدق في الحياة " و " فصـــد الدم " (1963) ، و " جثة على الرصـيف " ومأســاة بائع الدبس الفقير " والرســول المجهول في مأتم انتيجونا " (1964) و " الجراد.(1965) "

سافر إلى فرنسا عام 1966 وتعرف على المسرح الغربي في فترة تحولاته الأساسية ، واستطاع أن يستوعب أهم الطروحات الجديدة في تلك المرحلة وأن يطوعها في أعماله على أرضية المسرح العربي واهتماماته . فاستخدم " الهابننغ والتحريض " وأدخل تقنياتهما على موضوع الحرب في عام 1968 وذلك لكي يطرح سؤالا جوهريا حول الهزيمة مشككا بقدرة الكتابة المسرحية التقليدية على التعبير عن المستجدات والأحداث العنيفة المعاصرة كما في مسرحية " حفلة سمر من أجل 5 حزيران. "

إن استخدام تقنيات المسرح الغربي ، في تلك المرحلة ، لم يؤد عند سعد الله ونوس ، بأي حال من الأحوال إلى عملية نسخ ، وإنما كان عملية جدلية ربطت ودمجت بين أهم التطورات التي دخلت على المســـرح العالمي في الغرب ، وبين أشـــكال وتقاليد " الفرجة " في تراثنا الثقافي والشـــعبي . وهذا ما نجده في مســـرحيات مثل " الملك هو الملك " (1978) و " الفيل يا ملك الزمـان " ، و " مغامرة رأس المملوك جابر " (1969) حيث يحكي حكواتي لجمهور مقهى شـعبي حكاية المملوك الذي ضيع رأسـه في معمعة الصـراع على السـلطة . في هذه المسـرحيات يسـتخدم ونوس تقنيات اللعبة والحكاية التي تولد حكاية أخرى (كما في حكايات ألف ليلة وليلة) ، وتقنية المســـرح داخل المســـرح بحيث تبدو الأمور وكأنه لعب ينقلب إلى جد . وقد بلور ونوس عبر هذه المسرحيات مفهوم " التسييس " وميزه عن المسرح السياسي.

وبالإضـافة إلى ذلك صـاغ ونوس أفكاره عن المسـرح والثقافة بشـكل نظري في كتابي " بيانـات لمســـرح عربي جديد " و " هوامش ثقافيـة " . والواقع أن اهتمـامـات ونوس المتعددة والمتنوعة على المســـتوى الثقافي قد تبلورت في نواح عديدة منذ البداية . فقد قام بترجمة جان فيلار إلى العربية ، وكتب مسرحية عن مؤسـس المسرح في سوريا وهي " سـهرة مع أبي خليل القباني " . كما سـاهم في ترسـيخ أسـس لمهرجان مسـرحي في دمشـق ، وأسـس وترأس تحرير مجلة مسرحية مختصـة هي (الحياة المسرحية) ، وسـاهم في إنشـاء معهد لتدريس المسرح في سوريا.

كرم سعد الله ونوس في محافل عديدة أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي في دورته الأولى ومهرجان قرطاج بـــــ تونس عام 1989 وحصل على جائزة سلطان العويس الثقافية عن حقل المسرح في دورتها الأولى.

صــــدرت أعماله الكاملة في عام 1996 ، في ثلاثة مجلدات عن دار الأهالي بدمشــــق ، جمعت فيها كل المســـرحيات الطوية والقصـــيرة والنصـــوص النظرية من بيانات وكتابات تتعلق بالمسرح . وقد ترجمت مسرحياته إلى العديد من اللغات الأجنبية كما نشرت وتم عرضها في كثير من الدول العربية والأوربية.

رحل سعد الله ونوس في الخامسة عشر من أيار / مايو 1997 ، أثر مرض دام لسنوات لم ينقطع خلالها عن الكتابة . ومن أعماله في هذه الفترة " طقوس الإشـــارات والتحولات " و " والأيام المخمورة. "

هوامش للعرض والإخراج

أحاول في هذه المسرحية تجربة أخرى من تجارب " مسرح التسييس " التي بدأتها من قبل - ينبغي هنا التنبيه إلى أن هناك فارقا كبيرا بين " المسرح السياسي " و " مسرح التسييس " لا مجال الآن للبحث فيه - وأحدد بسرعة مفهوم هذا " المسرح " على أنه حوار بين مساحتين . الأولى هي العرض المسرحي الذي تقدمه جماعة تريد أن تتواصل مع الجمهور وتحاوره . والثانية هي جمهور الصالة الذي تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشكلاته .. وحتى الآن لا يزال هذا الحوار صعبا . فمن جهة ، هناك التقاليد المسرحية المبنية على إلغاء مثل هذا الحوار ، أو إقامته بصورة غير مباشرة وضمنية . وهناك أيضا - وهذا أهم - طبيعة المتفرجين أنفسهم وموانعهم الداخلية التي تحول بينهم وبين مباشرة الحوار والانسياق مع نوازعهم الداخلية للتعبير عن أنفسهم . لهذا فإننا نقوم بتجربة بعض الوسائل المصطنعة لتقديم مثل على إمكانية هذا الحوار كأن نضع في سياق العمل متفرجين يتحدثون لحسابهم ، ويناقشون ، ويقدمون نموذجا لما يستطيعه ، المتفرج أو لما ينبغي أن يكون عليه . طبعا نحن لسنا من السذاجة بحيث نعتقد - كما ظن أحد الكتاب في تعليقه على " حفلة سمر " - أن المتفرجين الحقيقين لن يكتشفوا أن هؤلاء الذين يجلسون بينهم ، ويشتركون في النقاش والحوار ، همم ممثلون مدربون على أدوارهم .. ولكن كما قلت سابقا : إننا نحاول ببعض الوسائل الاصطناعية كسر طوق الصمت ، وتقديم نموذج قد يؤدي تكراره إلى تحقيق غايتنا في إقامة حوار مرتجل وحار وحقيقي بين مساحتي المسرح : العرض والمتفرج . ومن المؤكد أن هذه الوسائل ليست كافية وحدها ، وقد تتحول إلى مجرد مسألة شكلية وتقنية ، ما لم يتوفر الأمر الأهم والأساسي في إثارة الحوار وتشجيعه . وأعني أن تتوفر في العرض المسرحي - أي في المساحة الأولى - الشروط اللازمة لإثارة الحوار .. كارتباط الموضوع بحياة المتفرج ومشاكله ، ونوع المعالجة ، وشكلها .. و... على أن هذه الشروط لا تكفي الموهبة فقط لتحقيقها ، وإنما تحتاج إلى بحث طويل في ظروف البيئة وبنيتها . وللأسف حتى الآن لم نشرع جديا في هذا البحث.

إني أحلم بمسرح تمتلئ فيه المساحتان ، عرض تشترك فيه الصالة عبر حوار مرتجل وغني يؤدي في النهاية إلى هذا الإحساس العميق بجماعيتنا وبطبيعة قدرنا ووحدته.

هذه المسرحية ليست إلا مشروع عمل لن يتم إلا بعد أن تتوفر له مجموعة متجانسة ولها رؤيتها ، تقوم ببنائه وبلورة إمكانياته من خلال بحث دؤوب ، لا تتوقف حددوده عند الهواجس

الجمالية ، بل تتعداها إلى المشـكلات السـياسـية والاجتماعية للواقع . إن كل تجربة عرض لهذه المسرحية ينبغي أن تكون في الوقت نفسه تجربة بحث ظروف البيئة الراهنة ، وشروط الاتصال بالمتفرج والتفاعل معه . دون ذلك ، هذه المسرحية تفقد كل مرراتها وقيمتها أيضا.

عندما أقول إن المسـرحية ليسـت إلا مشـروعا للعمل ، فإنني أعني وجود بعض الثغرات والمسـاحات الفارغة ، التي تركت عمدا كي يملأها " العرض المسـرحي " بما يلائم الظروف والمكان . ليست لهذه المسرحية بداية دقيقة ، والسياق نفسه يمكن ألا يتخذ شكلا صارما ومعماريا . نحن في مقهى .. والمقهى ليس مكانا للحدث المسرحي ، بل هو المسرح نفسه خشبة وصالة . والجو الذي يسوده له دور صميمي في المسرحيه . فمن خلاله سنعمد إلى كسر الطوق اليابس للعرض المسرحي ، وسنتخلص من طقوس العمل الدائري التام لنبعث بعد ذلك نوعا من الألفة بين المتفرجين ، يتيح لنا تقديم صـورة عفوية تتخللها حكاية ذات مغزى . لهذا فإن البداية ليسـت مرهونة بسـاعة معينة أو بافتتاح صـارم . إننا نبدأ فقط عندما يعم إحسـاس منشـود بالألفة . وتتلاشـى الغرابة الأولى ، التي يحسـها المرء حين يجد نفسـه وسـط جماعة ، هي الأخرى بمجموعها تحس بالغرابة إزاء قصة وشخصيات ومناظر تراها لأول مرة.

باختصـار إني أقترح شـكل " سـهرة المنوعات " لعرض مسـرحي . ولا شـك جو المقهى يتيح لنا فرصة ممتازة لذلك . وهذا الشكل لا يلتصق بهذه المسرحية فقط وإنما يمكن التوسع فيه ، واستنفاد إمكانياته في أعمال كثيرة لأن المهم في النهاية هو أن نتجاوز شكلا صارما لمسرح ، حتى الآن لا يزال المتفرج عندنا يجد نفسـه غريبا إزاءه . وهو يبذل مجهودا خاصـا - مجهودا ثقافيا بالطبع - كي يتلاءم مع هذا الشكل أو يألفه.

وباعتبار ما سـبق ، فإن كل أحاديث الزبائن ، وتدخلهم في مجريات الأحداث ، وتعليقاتهم ليسـت إلا اقتراحات ، أو ما سـميته وسـيلة اصـطناعية لتشـجيع المتفرج على الكلام والارتجال والحوار .. ولهذا فمن الممكن في ضـوء أي إخراج أن يعاد النظر في هذه الأحاديث ، أو أن تبدل صيغتها وتحول إلى العامية...

يمكن تقديم هذه المسـرحية في أي مكان ، وفي أي مسـاحة أنا أضـعها الآن في مقهى ، ولكن ذلك لا يمنع من تقديمها في أي مكان...

وبكلمة واحدة .. إني أبحث عن عرض حي لحكاية تهمنا جميعا . ولذا أتصور استخدام كل الوســـائل الممكنة كي نصـــل إلى هذا العرض الحي الذي أتمناه " فرجة " ممتعة ومفيدة تدفع المتفرج إلى تأمل مصيره.

في ركن ناءٍ من قرية حصــين البحر بريف طرطوس الســوري، وُلد ســعدالله ونوس عام 1941 وســط عائلة فقيرة تعاني من وطأة الحرمان. كان الطفل ضــعيفا في مادة التعبير، لكنه لم يكن يعلم أن تلك النقطة السلبية في تقريره المدرسي ستكون بوابة نحو عالم الكلمة والمسرح.

يروى أن أســتاذه، بنظرة حانية، نصــحه بالإكثار من القراءة، وهكذا بدأت رحلته. أول كتاب اقتناه كان "دمعة وابتسـامة" لجبران خليل جبران، ثم توسـعت مكتبته تدريجيًا لتشـمل أعمال طه حسـين وميخـائيل نعيمـة ونجيب محفوظ، لتصـــبح فيمـا بعد ملاذًا لـه من واقعه القاســـي. هذه البدايـة المتواضـعة لم تكن مجرد لحظة عابرة في حياته، بل كانت شـرارة لإشـعال موهبة كتب لها أن تـهزّ خشبة المسرح العربي وتترك بصمة لا تُمحى.

الرحلة نحو الكلمة

تأملات نقدية في التاريخ العربي

بعد حصـــوله على الثانوية العامة عام 1959، غادر ونوس قريته إلى القاهرة بمنحة دراسية لدراسة الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة. في شوارع المدينة الضخمة، وجد نفسه منجذبًا إلى محاضـــرات الدكتور محمد مندور، حيث اكتشـــف عالم النقد الأدبي الذي فتح له أبواب المسرح.

هناك، في أروقة الجامعة، بدأ يكتب أولى محاولاته المســـرحية بعنوان "الحياة أبدا" عام 1961، رغم أنها لم تُنشـــر آنذاك. كانت تلك الخطوة الأولى في رحلة طويلة كان يجهل وجهتها، لكنها كانت مليئة بالحماس والتطلع.

عاد إلى دمشق عام 1963، حيث عُيّن مشرفًا على قسم النقد في مجلة "المعرفة" التابعة لوزارة الثقافة. في تلك الفترة بدأ يكتب مقالات نقدية ومسـرحيات قصـيرة نُشـرت في مجلات مثل "الآداب" و"الموقف العربي."

عام 1965 أصدر أولى مجموعاته المسرحية بعنوان "حكايا جوقة التماثيل"، التي ضمت ست مسرحيات، منها "لعبة الدبابيس" و"جثة على الرصيف" و"الرسول المجهول في مأتم أنتيغونا". كانت هذه الأعمال تعكس رؤيته الأولية للمسرح كأداة تعبير عن الواقع الاجتماعي، لكنها كانت مجرد مقدمة لما سيأتي لاحقًا.

ميلاد "مسرح التسييس"

عام 1966 حصل ونوس على إجازة دراسية وسافر إلى باريس لدراسة المسرح الأوروبي. في شوارع العاصمة الفرنسية كتب رسائل نقدية عن الحياة الثقافية هناك، ونشرها في مجلات عربية، لكن الحدث الأكبر كان نكسة حزيران 1967. تلك الهزيمة المؤلمة هزت وجدانه، فكتب مسرحيته الشهيرة "حفلة سمر من أجل خمسة حزيران"، التي اعتُبرت صرخة ضد الخذلان والاستسلام. هنا، تبنى ونوس مفهوم "مسرح التسييس"، وهو أسلوب يتجاوز مجرد عرض الواقع ليصبح أداة لتغييره. كان يؤمن بأن الأنظمة القمعية تستفيد من مجتمع لا يفكر سياسيًا، وأن تسييس المجتمع هو خطوة تقدمية جوهرية.

أولى محاولاته المسرحية

بمرور الوقت تحول مسرح ونوس إلى مرآة تعكس تناقضات المجتمع العربي، لكنه لم يقتصر على عكس عيوب المجتمع، بل سعى لكسر تلك الصورة وإعادة تشكيلها.

في "سهرة مع أبي الخليل القباني" (1973) استعاد دور الفن في مواجهة السلطة، بينما في "طقوس الإشارات والتحولات" (1994) غاص بعمق في قضايا الدين والجنس والسيطرة. "منمنمات تاريخية" (1994) قدمت تأملات نقدية في التاريخ العربي، و"الأيام المخمورة" (1997)، آخر أعماله، كانت وصية كتبها وهو يصارع المرض، محملة بالأمل رغم الألم.

لم يكن ونوس منخرطًا في أحزاب سياسية، لكنه كان مثقفًا ملتزمًا، يرى أن دوره يتجاوز الكتابة إلى مساءلة الواقع. قال ذات مرة "إننا محكومون بالأمل،" عبارة أصبحت شعارًا في خطابه ليوم المسرح العالمي 1996، حيث كان أول كاتب عربي يُكلف بهذا الشرف بعد توفيق الحكيم. كانت كلماته دعوة إلى استمرار النضال الفكري، حتى في أحلك الظروف.

في سنواته الأخيرة أصيب ونوس بالسرطان، لكنه رفض أن يتوقف قلمه. كتب خلال تلك الفترة أعماله الأعمق، كأنما كان يريد ترك كل ما لديه قبل الرحيل. في 15 مايو 1997، توفي

عن عمر 56 عامًا، تاركًا إرثًا مسرحيًا وفكريًا عظيمًا. لم يكن مجرد كاتب، بل كان ضميرًا ثقافيًا قاوم الطغيان بالكلمة، وجعل من الخشبة منبرًا للحرية.

رمز تحت التهديد

بعد 28 عامًا من رحيله، عاد اسم ونوس إلى الواجهة في سياق غير متوقع. في ظل حكومة انتقالية جديدة تسعى لإعادة تشكيل الهوية الثقافية السورية، تسربت وثيقة في 2025 تشير إلى اقتراح يقضي بإعادة تسمية أكثر من 60 مدرسة في دمشق، منها مدرسة تحمل اسم ونوس.

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته

زوجته، فايزة شاويش، عبّرت عن أسفها العميق، قائلة إن زوجها "رمز وطني لا ينتمي إلى نظام، بل يستحق التكريم." اندلعت ضجة واسعة، لم تكن مجرد رد فعل على اسم مدرسة، بل تعبيرًا عن خوف من محو الرموز الثقافية التي شكلت وجدان السوريين.

تدخل وزير الثقافة، محمد ياسين صالح، ليؤكد بقاء الاسم، لكن القرار الأولي أثار تساؤلات. لاحقًا، أُعلن تراجع السلطات عن قرار رفع الاسم بعد ردود فعل غاضبة من المثقفين. لو لم يتراجعوا، كان ذلك سيُفسر كإشارة إلى استمرار منطق الإقصاء، وكان سيضعف مصداقية النظام الجديد في ادعائه الانفتاح. التراجع، رغم تأخره، أعطى فرصة لإعادة الاعتبار لرمزية ونوس، لكنه أيضًا أبرز حساسية المجتمع تجاه محاولات التلاعب بالذاكرة الثقافية.

إرث لا يُمحى

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته، بل بقدرته على إلهام أجيال. كان يرى المسرح فضاء لتحرير الإنسان من الخوف والتبعية، وسلاحًا ضد الصمت. أعماله، من "حفلة سمر" إلى "الأيام المخمورة"، لم تكن مجرد نصوص، بل دعوات للتفكير والتغيير. في زمن الانكسارات كتب ليقاوم، وترك أملًا يستمر في التوهج.

اليوم، ونوس يبقى رمزًا للمثقف المقاوم، والمسرح منبرًا للحرية. اسمه على مدرسة ليس مجرد تكريم، بل تذكير بأن الكلمة يمكن أن تكون مقاومة، وأن الثقافة هي الوطن الحقيقي الذي لا يمكن أن يُغلق. في عالم يتغير باستمرار، يبقى صوته نقيًا، يدعو إلى الأمل، ويحث على

التسـاؤل: هل يمكن للفن أن يغير الواقع؟ سـعدالله ونوس أجاب: نعم، وأثبت ذلك بكل خطوة خطاها على خشبة المسرح.

أهم المؤلفـــات :

- فصد الدم 1964.
- صـدور أول مجموعة له من المسـرحيات القصـيرة عن وزارة الثقافة تحت عنوان (حكايا جوقة التماثيل) 1965.
- عندما يلعب الرجال 1968.
- حفلة سمر من أجل خمسة حزيران 1968
- الفيل يا ملك الزمان1969.
- مغامرة رأس المملوك جابر 1971
- ترجمة كتاب (حول التقاليد المسرحية) 1976.
- الملك هو الملك 1977
- رحلة حنظلة 1978
- الاغتصاب 1990
- منمنمات تاريخية 1994
- طقوس الإشارات والتحولات 1994
- أحلام شقية 1995
- يوم من زماننا 1995
- ملحمة السراب 1996
- بلاد أضيق من الحب 1996
- رحلة في مجاهل موت عابر 1996
- الأيام المخمورة 1997